تخطيط
الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحملة سعد بن أبي وقاص إلى العراق ومتابعته لها

دراسة في ضوء المراسلات التي تمت بينهما أثناء الحملة

الدكتـور/ أرشيد يوسف حميدان

كلية الآداب للبنات - الرياض

تمهيـــد:

في الوقت الذي كانت فيه جيوش الخليفة الصديق رضي الله عنه تقمع الردّة في الجزيرة العربية، كانَ أحد قادة المسلمين المثنى بن حارثة الشيباني[١] يغير على تخوم[٢] فارس مع رجال من قومه من بني بكر بن وائل[٣]، وقد طلبَ المثنى من الخليفة أبي بكر الصديق أن يستعمله على قومه لقتال الفرس فكتب له عهداً بذلك[٤]، فكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يسميه مُؤمِّر نفسه.[٥]

وبعد أن انتهى خالد بن الوليد[٦] من القضاء على المرتدين في اليمامة، وجهه الصدّيق إلى العراق مدداً للمثنى على أن تكون القيادة لخالد وذلك في

---

(١) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضمة بن سعد بن مرة بن ذهل بن سنان الربعي الشيباني، قدم على النبي ﷺ سنة تسع فأسلم وله صحبة. توفي من جرح أصابه في معركة الجسر مع أبي عبيد بن مسعود الثقفي في العراق سنة ١٤هـ، وخلّف زوجته سلمى بنت حفصة، فتزوجها من بعده سعد بن أبي وقاص.

ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ٣/ ٣٦١-٣٦٢.

(٢) تخوم: نواحي، انظر مادة (تخم). المعجم الوسيط جـ١/ ٨٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٤٢.

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال/ ٨٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٣.

ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢/ ٣٧٦ - ٣٨٠.

(٥) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة جـ٣/ ٣٦١ - ٣٦٢.

(٦) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن كعب أبو سليمان، ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، أسلم سنة ٨ هـ، وشهد غزوة مؤتة، وتسلّم القيادة فيها بعد استشهاد زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب، لقبه الرسول ﷺ: سيف الله المسلول، شهد فتح مكة وغزوة حنين، وتأمّر على محاربة المرتدين، وغزا العراق، ثم وجهه الصديق إلى الشام، فتسلّم القيادة في معركة اليرموك فهزم الروم، وشهد فتوح الشام توفي بحمص ودفن فيها سنة ٢١هـ.

الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١/ ٣٦٦ - ٣٨٤.

المحرّم من سنة ١٢هـ.[٧]

والذي عليه أغلب المؤرخين أنه سار من اليمامة رأساً إلى العراق[٨] خلافاً لما قاله آخرون من أنه عاد إلى المدينة ثم سار إلى العراق[٩] حيث أرسل له الخليفةُ كتاباً جاء فيه: «سر إلى العراق حتى تدخلَها وابدأ بفرج الهند وهي الأبلّة[١٠] وتألّف أهل فارس ومن كان في مُلكهم من الأمم»[*][١١].

وقد استغرقت حملة خالد إلى العراق سنة ١٢هـ من أولها لآخرها[١٢]،

---

(٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٢-٣.

ابن كثير: البداية والنهاية جـ٦ / ٣٤٢.

(٨) إحدى روايات الطبري عن ابن اسحاق وهشام بن محمد الكلبي: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٢ / ٢٦١.

(٩) رواية أخرى عند ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٢٦١.

وشذّت رواية لليعقوبي. «فقالت: إنه سار مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى العراق» تاريخ اليعقوبي. جـ٢ / ١٣١.

(١٠) فرج الهند (الأبلّة) بلدة على شاطىء التقاء دجلة مع الفرات، في زاوية الخليج من الجهة الغربية، كانت آخر أعمال فارس قبل الإسلام، وكان بها مسالح (قوم يحملون السلاح للمراقبة والحماية) من قبل ملوك الفرس، قبل أن يبني بها عتبة بن غزوان مدينة البصرة سنة ١٤هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ١ / ٩٨-٩٩ جـ٤ / ٢٨٠.

(*) جموع من نصارى العرب من قبائل بكر بن وائل وطيِّئ وبني عجْل وتيم اللات، وضبيعة، وعرب الضاحية من أهل الحيرة من النمر وتغلب وإياد وغسّان وتنوخ وكلب. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٣-٩، ٢١ - ٢٣.

(١١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٢.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان / ٢٤٢ وما بعدها. الدّينوري: الأخبار الطوال / ٨٨. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٣٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٢ - ٢٣. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٢٧٤ - ٢٧٩.

فأحرز انتصارات عظيمة على حافتي الفرات من أسفل إلى أعلى، وصالحه أهل السواد[13]، على جزية سنوية يدفعونها للمسلمين على أنهم أهل ذمة، وكتب لهم عهداً[14] بذلك[15]. ثم صرفه الخليفة أبو بكر إلى الشام في أوائل سنة ١٣هـ مدداً للجيوش الإسلامية فيها، فاصطحب معه نصف الجيش، وترك النصف الثاني بقيادة المثنى لمواصلة الفتوحات في العراق[16].

وفي هذه الأثناء كانت الإمدادات تتواصل من المدينة لدعم الفتح الإسلامي قبل مغادرة خالد بن الوليد للعراق وبعده، وعلى رأس هذه الإمدادات: قطبة بن قتادة السدوسي،[17] عياض بن غنم[18]، القعقاع بن عمرو

---

(١٣) السَّواد: سمي بذلك لسواده بالزروع والمياه وحدوده طولاً من حديثة الموصل إلى عبادان، وعرضه من عُذيب القادسية إلى حلوان، فتحه المسلمون عنوةً، فلم يقسمه الخليفة عمر بين الغانمين، وأقرَّ سكانه عليه، على أن يدفعوا عنه الخراج.

الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٧٢ - ١٧٤.

(١٤) انظر نصوص هذه المعاهدات التي أبرمها خالد بن الوليد مع دهاقين السواد قبل أن يسير إلى الشام. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤، ١٦، ١٧ - ٢٢.

(١٥) البلاذري: فتوح البلدان / ٢٤٢ وما بعدها. الدينوري: الأخبار الطوال / ٨٨. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٣١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٣، ١٤، ١٦ - ١٨.

(١٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٢٨. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٢٧٩.

(١٧) قطبة بن قتادة السدوسي، وقيل: قطبة بن جرير السدوسي، من بني ثعلبة بن سدوس ابن ذهل بن شيبان، وفد على النبي ﷺ وبايعه، تركه خالد بن الوليد على جنوب العراق في المكان الذي كان يطلق عليه الأبلَّة قبل بناء البصرة سنة ١٤هـ عندما واصل خالد بن الوليد فتوحاته على الحافة الغربية من نهر الفرات باتجاه الشمال سنة ١٢هـ.

ابن الأثير: أُسد الغابة في معرفة الصحابة جـ٤/ ٢٠٦.

(١٨) عياض بن غنم الفهري القرشي، أسلم قبل الحديبية وشهدها مع الرسول ﷺ شهد فتوح العراق والشام، توفي بحمص ودفن بها سنة ٢٠ هـ.

ابن الأثير: أسد الغابة جـ٤ / ١٦٦. ابن حجر: الإصابة جـ٢ / ٥٠.

التميمي[19]، عتبة بن غزوان المازني[20]، أبو عبيد بن مسعود الثقفي[21]، جرير بن عبد اللّه البجلي[22].

فكان سويد بن قطبة يقاتل من ناحية الأبلّة جنوباً، عندما كان المثنى بن حارثة يقاتل شمالاً في نواحي الحيرة[23]، في خلافة

---

(١٩) القعقاع بن عمرو التميمي. أخو عاصم بن عمرو التميمي، كان لهما بلاء عظيم في القادسية، مدحه سعد للخليفة عمر فقال عنه: «لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل في يوم ثلاثين حملة، يقتل في كل حملة بطلاً». شهد فتح دمشق والمدائن.

ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٣/ ١٢٨٣.

ابن حجر: الإصابة جـ٣/ ٢٣٩.

(٢٠) عتبة بن غزوان المازني، أبو عبد اللّه حليف بني عبد شمس أسلم سابع سبعة، وهاجر إلى الحبشة وشهد بدراً، أحد الرماة المشهورين، ومن أمراء الغزو، استعمله الخليفة عمر رضي اللّه عنه على البصرة، وهو الذي مصّرها وكانت تسمى قبله الأبلّة (فرج الهند). مات سنة ١٥هـ.

الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١/ ٣٠٤-٣٠٦.

(٢١) أبو عبيد بن مسعود الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يكن له صحبة، قاتل المثنى ابن حارثة الشيباني تحت قيادته بمعركة الجسر في العراق، فاستشهد أبو عبيد في هذه المعركة، ابنه المختار بن أبي عبيد الكذاب، الذي ادعى أن الوحي يأتيه، فقاتله مصعب ابن الزبير في العراق فقتله، وغلب على العراق لصالح أخيه عبد اللّه بن الزبير سنة ٦٧هـ.

الذهبي سير أعلام النبلاء جـ٣/ ٥٣٨-٥٤٤. ابن حجر: الإصابة: جـ٤/ ٢٩٩.

(٢٢) جرير بن عبد اللّه البجلي القحطاني، من أعيان الصحابة، أسلم في السنة العاشرة من الهجرة، قال فيه الرسول ﷺ: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». توفي بالجزيرة الفراتية سنة ٥١هـ.

الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٢/ ٥٣٠-٥٣٧.

(٢٣) الحيرة: مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له: النجف، وبالحيرة، الخورنق مما يلي الشرق نحو ميل.

ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢/ ٣٧٦.

الصديق[٢٤] . ثم أرسل الخليفة عمر رضي الله عنه عتبةَ بنَ غزوان إلى جنوب العراق في نواحي الأبلّة على سبيل المراقبة والحماية[٢٥] من تلك الجهة، حتى لا يؤتى المسلمون من الخلف، فقد أوصاه قبل أن يودعه قائلا له : «قد فتح اللّه جلَّ وعزَّ على إخوانكم الحيرةَ وما حولها و قُتلَ عظيم من عظمائها (مهران) ولست آمن أن يمدّهم إخوانهم من أهلِ فارس، فإني أريد أن أوجهك إلى أرض الهند[٢٦] لتمنع أهل تلك الجيزة من إمداد إخوانهم على إخوانكم، وتُقاتلهم لعلّ اللّه أن يفتح عليكم، فسرْ على بركة اللّه واتق اللّه ما استطعت، واحكم بالعدل، وصلِّ الصلاة لوقتها، وأكثر ذكر الله»[٢٧] .

وقد أحرز عتبة بن غزوان انتصارات هامة على الفرس في نواحي الأبلّة[٢٨] وبنى مكانها مدينة البصرة[٢٩]، ثم استأذن عمرَ في العودة إلى المدينة فأذن له

---

(٢٤) الدينوري : الأخبار الطوال / ٨٧ .

(٢٥) وهي ما كان يعرف قديماً بالمسالح. وهي وضع رجال مسلحين في مكان ما على سبيل المراقبة والحماية.

انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ١ / ٩٨ - ٩٩، جـ٤/ ٢٨٠ .

في تعريف الأبلّة (فرج الهند) انظر : المعجم الوسيط جـ١ / ٤٤٢ .

(٢٦) أرض الهند : المقصود بها فرج الهند (الأبلّة). انظر الهامش رقم ١٠ .

(٢٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٨ .

(٢٨) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط / ١٢٧ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٣ . الدّينوري : الأخبار الطوال / ٩١ .

(٢٩) البصرة : سميت بذلك لكثرة الحصى فيها حين وافاها المسلمون لأول مرة سنة ١٢هـ، كانت مسلحة للفرس قبل الإسلام يطلق عليها الأبلّة (فرج الهند)، آخر جنوب العراق على فم الخليج، أول من مصّرها عتبة بن غزوان سنة ١٤هـ.
انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٨ وما بعدها.
ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ١ / ٥١٠ - ٥٢٢ .

فاستخلف مكانه المغيرة بن شعبة[٣٠] قبل أن يعود إلى المدينة[٣١] ثم عزله وأقام مكانه أبا موسى الأشعري[٣٢][*] ثم تولى القيادة في العراق أبو عبيد بن مسعود الثقفي[٣٣] فتحمس لقتال الفرس وعبر نهر الفرات إليهم على جسر أقامه لذلك يطلق عليه جسر أبي عبيد[٣٤]، على الرغم من معارضة أصحابه للعبور[٣٥]، فقاتل الفرس شرقي النهر في رمضان سنة ١٣هـ، فاستشهد هو

---

(٣٠) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي. من كبار الصحابة، مشهور بالشجاعة والدهاء، أسلم في السنة الخامسة من الهجرة وشهد غزوة الأحزاب وبيعة الرضوان ومحاربة المرتدين في اليمامة، وشارك في فتوح الشام والعراق وفارس، وتولى البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه.

الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٣/ ٢١.

(٣١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط/ ١٢٩.

ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٤٨.

(*) أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس بن سليم بن حرب، صاحب رسول الله ﷺ هاجر إلى الحبشة وبقي فيها حتى سنة ٧هـ، ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة بعد ذلك، استعمله الرسول ﷺ على زبيد وعدن، وولي البصرة ثم الكوفة في خلافة عمر رضي الله عنه وشارك في فتوحات العراق وفارس. مات في الكوفة سنة ٤٢هـ، وقيل: سنة ٤٣هـ.

الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٢/ ٣٨٠ - ٤٠٢.

(٣٢) الدينوري: الأخبار الطوال/ ٩٢. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٤٨.

(٣٣) ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٢٩٨.

(٣٤) يطلق على هذا المكان جسر أبي عبيد، القرقس، قس الناطف، المروحة. وذكره ياقوت الحموي معجم البلدان جـ٥/ ٢٦٩. بأنه موضع بين الكوفة وواسط، وسكنه أهل نجران عندما أجلاهم الخليفة عمر من الجزيرة العربية. وذكره الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ٢/ ١٧ بأنه يقع عند مكان يسمى نجران. وذكره ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب جـ١/ ٢٧ بأنه على بعد مرحلتين من الكوفة.

(٣٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط/ ١٢٤. الدينوري: الأخبار الطوال/ ٨٩. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٣/ ٣١٦. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول/ ١٠٠.

وعـــدد كبيـــر من المسلمـــين[٣٦] . وانسحب المثـــنى إلى ناحيـــة بعيـدة غربـي الفرات[٣٧]، ثم انضـم إليـه جـرير بن عـبـد اللَّه البـجلي بإمـدادات جـديدة، وواصل الغـارات على الفـرس في نواحي الفرات قـبل أن يأتي سـعـد بن أبي وقاص إلى العراق سنة ١٤هـ[٣٨].

القـائـد الفـاتـح :

أصبح موقف المسلمين ضعيفاً في العراق في أوائل خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد غياب خالد بن الوليد عن العراق وما أصاب المسلمين في معركة الجسر[٣٩] واجتماع كلمة الفرس على يزدجرد بن شهريار[٤٠]، بعد اختلاف طالت مـدته على المـلك بينهم[٤١] واهتـمـامـهم بأمـر المسلمين ومـا فـعلوه ببلادهم[٤٢]، ونقض أهل السواد الذين صالحهم خالد بن الوليد قبل انصرافه

---

(٣٦) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط / ١٢٤ . الدينوري : الأخبار الطوال / ٨٩ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٠٢ . الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ٢ / ١٧ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٢٧ - ٢٨ .

(٣٧) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٣ . الدينوري : الأخبار الطوال / ٨٩ .

(٣٨) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٢٩ الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٧٧ .

(٣٩) انظر ص٤٠٤ من هذا البحث.

(٤٠) يزدجرد بن شهريار : توَّجه الفرس ملكاً عليهم سنة ١٢هـ بعد خلاف طالت مدته بين الأسرة الساسانية إلى أن اجتمعت كلمتهم على يزدجرد وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، فلقى الفرس في عهده هزائم متتالية من قادة المسلمين وفتحت في عهده المدائن سنة ١٦هـ وظل بعدها يتنقل من مدينة إلى أخرى هائماً على وجهه إلى أن قتل في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٣١هـ.

الدينوري : الأخبار الطوال / ٨٦ وما بعدها.

(٤١) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٤ . الدينوري : الأخبار الطوال / ٨٧ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨١ .

(٤٢) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٠٨ .

إلى الشام، فخلعوا الطاعة و تنكروا للعهود والمواثيق ، فآذوا المسلمين وأخرجوا العمال من بين أظهرهم واستعانُوا بالفرس عليهم[٤٣] .

وكان المثنى بن حارثة الشيباني قد تسلّم القيادة في العراق بعد معركة الجسر[٤٤] فكتب إلى الخليفة عمر بأخبار العراق فأجابه بأن ينسحب بمن معه إلى غربي نهر الفرات أقرب ما يكون من أرض العرب، حتى تصله الإمدادات، وكان ذلك في أواخر سنة ١٣هـ[٤٥] .

أهمّت هذه الأخبار الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشغلت باله كثيراً، فأعلن التعبئة العامة في الجزيرة العربية وأرسل إلى جميع أطرافها يطلب النجدة، ومما قاله في كتبه إلى عماله : «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلاّ انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ والعجل العجل»[٤٦] . ثم صرّح بما يشير إلى أنه سيتولى القيادة بنفسه ويخرج إلى العراق ، فقد قال : «واللَّه لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب»[٤٧] .

وقد أشرف الخليفة بنفسه على اجتماع النجدات التي جاءت إلى المدينة فاستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وخرج بهذه النجدات إلى مكان

---

(٤٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٣٠، ٣٥ .

(٤٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٦٧ وما بعدها .

(٤٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨١ -٨٢، ٨٤ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٠٨.

(٤٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٢ . انظر ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٠٨ .

(٤٧) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٠٨ - ٣٠٩ .

قريب منها يدعى صرار[٤٨] قبل أن تنطلق إلى العراق[٤٩].

بدأ الخليفة باستشارة أصحابه فيما يفعله : أيخرج بنفسه أم ينتدب غيره فقال بعضهم : «سر وسر بنا معك»[٥٠] وعارض آخرون فقالوا : «أقم وابعث غيرك»[٥١] ، فمال إلى قبول هذا الرأي ، فاستشار أصحابه فيمن يصلح لأمر العراق ، فأشاروا بسعد بن أبي وقاص[٥٢] ، وكان مقيماً على صدقات هوازن بنجد[٥٣] ، فاستدعاه الخليفة وأمَّره على الجيش الذي كان ينتظره بصرار قرب

---

(٤٨) صَرار : موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق ، به ماء .
ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٣/ ٤٥٢ .

(٤٩) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٠٩ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٣٥ .

(٥٠) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٠ .

(٥١) المسعودي : مروج الذهب جـ٢/ ٣١٧ .

(٥٢) سعد بن أبي وقاص . سعد بن مالك أبو وقاص بن أهيب وهيب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب بن مرة . أبو إسحاق القرشي الزهري ، ثالث من أسلم وقيل سابع من أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد عارضت أمه إسلامه وامتنعت عن الطعام والشراب حتى يعود عن إسلامه ، إلاّ أنها عادت إلى طعامها وشرابها عندما رأت تمسكه بدينه . أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة (أهل الشورى) الذين حدّدهم الخليفة عمر رضي الله عنه لاختيار خليفة منهم بعده ، أول من رمى بسهم في سبيل اللّه عندما كان في سرية مع عبيدة بن الحارث في السنة الأولى من الهجرة ، وأول من أراق دماً في الإسلام ، إذ ضرب بلحي عظم أحد المشركين فشجه وأراق دمه ، شهد بدراً وأحداً فكان يرمي الكفار بنباله يوم أحد فقال له الرسول ﷺ : «ارم سعد فداك أبي وأمي» ، كما شهد الخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة . دعا له الرسول ﷺ فقال : «اللهم استجب له إذا دعاك» . وفي رواية «اللهم سدّد سهمه وأجب دعوته» . توفي بالعقيق قرب المدينة سنة ٥٥هـ عن عمر يقارب خمساً وسبعين سنة ، ودفن بالبقيع .
ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ / ٢٤٢ . ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٣ / ١٣٧ . ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ٢ / ٦٠٦ - ٦١٠ . ابن الأثير : أسد الغابة جـ٢ / ٢٩١ . ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة جـ٢ / ٣٣ .

(٥٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٣ - ٨٤ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٠ .

المدينة[٥٤].

وهنا نلاحظ أن الخليفة لم يترك الوقت يضيع سدىً قبل اختيار القائد الذي سوف يسير بالجيش إلى العراق، بل حشد المتطوعة وجمعهم بصرار قرب المدينة استعداداً للزحف بقيادة سعد بن أبي وقاص وقد أوصاه الخليفة عندما أمَّره قائلا له: «إني وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله، واعلم أن خشية اللّه تجتمع في أمرين، في طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها اللّه إنشاءً، منها السر ومنها العلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق سواء، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ومحبة الناس، فلا تزهد في التحبب، فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن اللّه إذا أحب عبدا حببه، وإذا أبغض عبدا بغّضه، فاعتبر منزلتك عند اللّه بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك»[٥٥].

ثم عاد فأوصاه قبل أن يودعه فقال له: «يا سعد سعد بني وهيب، لا يغرنك من اللّه أن قيل خال رسول اللّه ﷺ وصاحب رسول اللّه فإن اللّه عزَّ وجلَّ لا

---

(٥٤) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٥٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٨٣ - ٨٤. المسعودي: مروج الذهب جـ٢/ ٣١٨.

(٥٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٨٥. انظر الوصية باختلاف عما جاء في الطبري عند ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٣٦.

يمحو السيىء بالسيىء ولكنه يمحو السيىء بالحسن، فإن اللّه ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات اللَّه سواء، اللَّه ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ أن بعث إلى أن فارقنا، فالزمه فإنه الأمر، هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين»[٥٦].

ويلاحظ على هاتين الوصيتين اللتين أوصاهما الخليفة عمر لسعد بن أبي وقاص أنهما مجموعة من النصائح والتوجيهات العامة: كالصبر على المكاره، وخشية اللَّه على كل حال، ولزوم طاعته واجتناب نواهيه ومعاصيه والترغيب في الآخرة والعمل لها، وليس فيهما ما يشير إلى الخطة العسكرية التي سيسير عليها سعد أو جهة معينة في العراق يوجهه إليها، سوى أنه صرّح له بأنه ولاّه على حرب العراق، وأعتقد أنه فيما يتعلق بالتوجيهات العسكرية ظل أمراً خفياً بين الخليفة وسعد، فلم تتحدث عنه المصادر التاريخية، وكانت صورتها تتبلور وتتضح من خلال المراسلات التي جرت بينهما فيما بعد حسب ما تنجلي إليه الأمور من معلومات عن الفرس في المستقبل، والظروف التي سيواجهها سعد في طريقه، وسوف نلاحظ تطور هذه الخطط أثناء تقدم القائد إلي الأمام بعد الحصول على المعلومات أولاً بأول والتي حرص على تزويدها للخليفة واستقبال أوامر وتوجيهات الخليفة بناء على هذه الأخبار والمعلومات.

---

(٥٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٤ - ٨٥.
انظر ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١٠.

انطلاق الحملة :

تحرك سعد مع ستة آلاف من الجند يرافقه الخليفة إلى الأعوص[٥٧] في شعبان سنة ١٤هـ وكان الفصلُ شتاءً[٥٨] ثم رجع الخليفة إلى المدينة وسار سعد في اتجاه زرود[٥٩] وكان الخليفة أوصاه أن يستريح فيها حتى تأتيه تعليمات جديدة منه وأن يفرق الجند في نواحيها فلا يجمعهم فيها، فنفذ سعد تعليماته فأراح جنده بزرود حتى تصله تعليمات جديدة من الخليفة[٦٠] وهنا نلاحظ أن خطة التحرك إلى الأمام التي أرسلها الخليفة إلى سعد تكمن في عدم الاجتماع في مكان واحد خوفاً من المباغتة وهم على غير استعداد، كما حرص الخليفة على أن يستريح الجند في أثناء الرحلة حتى إذا وقعت المعركة فجأة كانوا هم ودوابهم بلا عناء وعلى أتم استعداد فقد قال الخليفة لسعد في إحدى رسائله له: «وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحةً يجمُّون[٦١] فيها أنفسهم، ويرمُّون[٦٢] أسلحتهم وأمتعتهم»[٦٣].

---

(٥٧) الأعوص : موضع قرب المدينة على بعد نحو سبعة أميال منها.
البكري : معجم ما استعجم / ١٧٣ . ياقوت : معجم البلدان جـ١ / ٢٦٤ . ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ١ / ٩٦ .

(٥٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٦ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٠ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٣٥ .

(٥٩) زرُود : موضع على بعد خمسمائة وخمسة وثمانين ميلاً من المدينة باتجاه الكوفة على درب زبيدة، . تقع في منطقة رملية بين الثعلبية والخزيمية، وسميت زرود لابتلاعها المياه. ياقوت : معجم البلدان جـ٣/ ١٥٦ . أطلال : العدد ٥ / ٨٤ - ٨٥ .

(٦٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٦ .

(٦١) يجمُّون : يريحون أنفسهم . انظر مادة (جمم): المعجم الوسيط جـ١ / ١٧٣ .

(٦٢) يرمّون : يصلحون . انظر مادة (رم)المعجم الوسيط جـ١ / ٣٧٤ .

(٦٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ١ / ٩٢ .

وكان المثنى بن حارثة الشيباني في انتظار سعد للانضمام إليه بعد انسحابه من معركة الجسر غرب الفرات في مكان يقال له أُلَّيس[٦٤] في رواية للبلاذري[٦٥] أو الثعلبية[٦٦] كما قال الدينوري[٦٧] وأعتقد أن انسحابه باتجاه الثعلبية أقرب إلى الصواب منها إلى أليس ؛ حيث إن هذا الانسحاب يعني الاقتراب من أرض العرب بعيداً عن أرض الفرس بعد الذي أصاب المسلمين بمعركة الجسر[٦٨] إلاّ أنه توفى قبل وصول سعد إليه من أثر جراحة كانت أصابته في معركة الجسر ، وقد أناب مكانه على الجند بشير بن الخصاصية[٦٩] وترك وصية حملها أخوه المعنى بن حارثة الشيباني مع أرملة أخيه سلمى بنت حفصة الزبراء فوافى سعداً بزرود[٧٠] . وفي رواية أنه وافاه بشراف[*][٧١] بعد

---

(٦٤) ألّيس : قرية من قرى الأنبار في العراق . ياقوت : معجم البلدان جـ١ / ٢٩٤ .

(٦٥) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٣ .

(٦٦) الثعلبية : موضع شمال زرود في منخفض من الأرض، وأصبح فيما بعد إحدى المحطات الكبيرة على درب زبيدة، بها عدة حصون وآبار وبركة ماء .

أطلال : العدد ٥ / ٩١ - ٩٤ .

(٦٧) الدينوري : الأخبار الطوال / ٨٩ .

(٦٨) انظر موقع الثعلبية، أليس . في الخريطة رقم ١ ص ٤٨٣ .

(٦٩) بشير بن الخصاصية : هو بشير بن معبد السدوسي ، والخصاصية أمه، روى عن الرسول ﷺ عدة أحاديث .

ابن عبد البر : الاستيعاب جـ١ / ١٧٣ .

(٧٠) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٦ .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٣٦ .

(*) شَرَاف : موضع شمال واقصة بميلين . انظر الخريطة رقم ١ ص٤٨٣ .

ياقوت : معجم البلدان جـ٣ / ٣٧٥ .

(٧١) الدينوري : الأخبار الطوال / ٩٣ . وإحدى روايات الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٩ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٢.

رحيله من زرود، فتزوج سعد أرملة المثنى بعد انتهاء عدتها قبل معركة القادسية(*) (٧٢) وقد أورد الطبري وصية المثنى لسعد بن أبي وقاص يقول له فيها : «ألا يقاتل عدوّه وعدوهم -يعنى عدو المسلمين- من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر(٧٣) من أرض العرب وأدنى مدرة(٧٤) من أرض العجم فإن يظهر اللّه المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فأووا إلى فئة ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللّه الكرة عليهم»(٧٥) .

وصلت تعليمات الخليفة إلى سعد وهو بزرود كي يتقدم إلى الأمام تجاه شراف، وأرسل إليهم إمدادات يقدر عددها بـ(١٧٠٠) من أهل اليمن وعليهم الأشعث بن قيس(٧٦) فانضمت إليه قبل وصوله إلى شراف(٧٧) .

(*) القادسية : الموضع الذي وقعت فيه معركة القادسية جنوب الكوفة بخمسة عشر ميلاً، بينه وبين العُذيب أربعة أميال. ياقوت : معجم البلدان جـ٤ / ٣٣٢ .

انظر سعد الراشد: درب زبيدة/ ١٢٥ .

(٧٢) الدينوري : الأخبار الطوال/ ٩٣ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٩ . ابن الأثير : الكامل جـ٢/ ٣١٢ .

(٧٣) حجر : الصحراء.

(٧٤) مدر : المناطق المأهولة بالسكان آخر الصحراء باتجاه العراق. سكان القرى خلاف الصحراء التي يسكنها البدو . القاموس المحيط جـ٢ / ٨٥٨ .

(٧٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ - ٨٩ .

(٧٦) الأشعث بن قيس بن معد يكرب بن معاوية بن جبلة الكندي. له صحبة مع النبي ﷺ، ثم ارتدّ بعد وفاته ﷺ فيمن ارتد من أهل اليمن، فحوصر وأُخذ بالأمان، فأُتي به الصديق رضي الله عنه، فعاد إلى الإسلام، وزوجه الخليفة الصديق أخته فروة بنت أبي قحافة، قاتل في اليرموك فأصيبت عينه وشارك في القادسية، وكان عاملاً لعثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته على أذربيجان. توفي في الكوفة سنة ٤٠هـ. الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ / ٣٧ - ٤٣ .

(٧٧) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١١ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٣٦ .

ويتابع الخليفة إرسال تعليماته إلى قائد الحملة حسب مستجدات الظروف بما يدعم الحماية لها وتطوير الخطة العسكرية اللازمة لتأمين النصر، فقد أرسل له بعد مرتحله من زرود كتاباً يقول له فيه: «ابعث إلى فرج الهند[٧٨] رجلاً ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً[٧٩] لك من شئ إن أتاك من تلك التخوم»[٨٠] وكان ذلك سنة ١٤هـ حسب تسلسل الأحداث في تاريخ الطبري[٨١].

ونرى في هذا الكتاب الذي أرسله الخليفة إلى سعد وهو لا يزال في طريقه إلى أرض العراق، إضافة حلقة جديدة من الخطط العسكرية، بأن أمر قائد الحملة أن يرسل فرقة من جيشه بقيادة من يرضاه إلى فرج الهند (الأبلّة) عند فم الخليج على سبيل الحماية حتى لا يقع من ناحيتها التفاف حول المسلمين من الخلف، وكانت هذه الجهة من قبلُ مبتدأ الغزو في أرض العراق، حيث بدأ المثنى منها أعماله الحربية قبل أن يواصل سيره إلى الحيرة شمالاً ومنها بدأ خالد بن الوليد دخوله إلى العراق حين وجهه إليها الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وكذلك سائر الإمدادات التي جاءت إلى العراق بعد ذلك، وإليها جاء عتبة بن غزوان فأسس البصرة وأقام بها ثم رجع إلى المدينة كما مرّ معنا سابقاً[٨٢].

---

(٧٨) انظر تعريفها في الهامش رقم ١٠ .

(٧٩) ردءاً : معيناً وناصراً. المعجم الوسيط مادة « ر د أ » جـ١ / ٣٣٧ .

(٨٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك : جـ٤ / ٨٧ .

(٨١) نفس المصدر جـ٤ / ٨٧ .

(٨٢) انظر ص٤٠٤ من هذا البحث.

وقد نفذ سعد تعليمات الخليفة بأن أرسل إلى فرج الهند المغيرة بن شعبة في خمسمائة من الجند، فأقام في تلك الناحية بمكان يقال له : غضي[٨٣]، على سبيل المراقبة والحماية، وانضم إلى جرير بن عبد اللّه البجلي الذي كان أرسله الخليفة سابقاً مدداً للمثنى بن حارثة بعد معركة الجسر[٨٤].

وفي إحدى روايات الطبري أن سعداً أقام بالثعلبية ثلاثة أشهر والإمدادات تتلاحق إليه حتى دخلت سنة ١٥هـ فسار بعدها إلى العذيب[*][٨٥]. أما المسعودي فقد قال إنه توجه إلى زُبالة[٨٦] حسبما أوصاه عمر[٨٧]. ولا يوجد تعارض حول هذا الاتجاه لأن زبالة على نفس الطريق من زرود إلى الثعلبية ثم إلى شراف فالعذيب، فهي محطات استراحة للجند على نفس الطريق المؤدية إلى القادسية.[٨٨]

---

(٨٣) غضيّ : موضع غرب البصرة، ويُطلق على سلسلة . جبال البصرة باتجاه الغرب منها. ياقوت : معجم البلدان جـ٤ / ٢٣٤ .

(٨٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٧ .

(*) العُذيب : نسبة إلى الماء العذب، وهو موضع غرب القادسية بنحو أربعة أميال على طريق البادية، . كانت مسلحة للفرس، وضعت فيه نساء المسلمين أثناء معركة القادسية، يحرسهن رجال من المسلمين، عليهم غالب بن عبدالرحمن الليثي. ابن خرداذبه : المسالك والممالك / ١٢٦ . ياقوت : معجم البلدان جـ٤ / ١٠٤ . سعد الراشد : درب زبيدة / ١٢٦ .

(٨٥) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٥ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٦ - ٨٧ .

(٨٦) زُبالة : منزل بين واقصة والثعلبية، سميت بذلك لضبطها الماء، تزبله : أي تحتمله . ياقوت : معجم البلدان جـ٣ / ١٤٥ .

(٨٧) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ / ٣٢٠ .

(٨٨) انظر طريق حملة سعد بن أبي وقاص في الخريطة رقم ١ ص ٤٨٣من هذا البحث .

ويظل الخليفة على صلة بسعد فلا ينقطع عنه يزوده بالنصائح والتوجيهات التي تخدم خطته العسكرية في أثناء تقدمه على الطريق الذي سلكه من المدينة . ونلاحظ أن إحكام الخطة العسكرية كانت تتطور كلما تقدم سعد إلى الأمام حسب طبيعة الأرض التي سيقف عليها، وما يصله من أخبار ومعلومات عن العدو، وهذا ما كان يجري التفاهم عليه بين الخليفة وسعد. وفي الطريق إلى شراف، وصلت تعليمات وتوجيهات ونصائح جديدة من الخليفة بما يخدم خطط القتال وتعبئة الجيش لتحقيق النصر على العدو، فقد حثه على الصبر والبعد عن المعاصي لأنها أخطر عليه من عدوه، وضرب له مثلاً ببني إسرائيل، عندما عملوا بما يغضب اللّه سلط عليهم كفار المجوس، وضمن وصيته أن يكون رحيماً بجنده فلا يشق عليهم في سيرهم حتى يبلغوا عدوهم وهم قادرون على القتال وأوصاه أن يريح جنده يوماً وليلة من كل أسبوع كي يعدوا أسلحتهم ويصلحوا أمتعتهم ويريحوا أنفسهم، ثم نصحه أن يبتعد عن أرض أهل الصلح فلا يقيم بينهم حتى لا يغدروا بالمسلمين وهذا دليل على عدم الثقة بهم، وفي نفس الوقت أمره أن لا يثيرهم فلا يتعرض لهم بسوء وأن يعاملهم معاملة حسنة لتخذيلهم عن معاونة الفرس وعدم إثارتهم ضد المسلمين. وأكد عليه المحافظة على العهد مع الذين يلتزمون به من أهل السواد، وهم الذين عاهدهم خالد بن الوليد سابقاً قبل مغادرته لأرض العراق إلى الشام.

ومما يخدم الخطة العسكرية الحصول على أخبار العدو ومعرفة نقاط ضعفه وطرق إمدادهم، فأمره بإذكاء العيون والطلائع واستشارة أهل الرأي والثقة من أهل العراق عرباً كانوا أم عجماً، كلما تقدم إلى الأمام.

وقد ضَمَّن نصائحه أن تكون طلائعه وعيونه من أهل البأس والشدة والراغبين في الجهاد للمحافظة على المعنويات كما نصحه أن لا يتعجل بقتال العدو وكأنه يريد أن لا يغامر بأرواح الجند ولا يقتحم أنهار العراق إلى السواد قبل أن يبصر عورة العدو ومقاتله مما يدل على أنه أرسل هذه التعليمات قبل أن تصل الخليفة أخبار حملة رستم قبل خروجه من المدائن.

ثم أوصاه أن يجمع سراياه وطلائع جيشه، إذا عاين العدو مما يدل على أن سعداً كان يسير بجيشه جماعات جماعات، وفق خطة معينة. ومما يجدر ذكره أن هذه الخطة هي السياسة التي تحرك الجيش بها في أرض العراق، إذ قدمت إمدادات الشام إلى القادسية على نفس هذه الطريقة أفواجاً أفواجاً، فشاركت بعضها في القتال ووصل الباقي بعد نهاية المعركة كما سيأتي لاحقاً.

ومن جملة الوصايا التي أرسل بها الخليفة لسعد لتخدم خطته العسكرية أن يتعرف على الأرض وأهلها قبل القتال وأن يحرص على حراسة عسكره في أثناء البيات فيكون حذراً يقظاً وأن يرهب عدوه بقتل أسراهم. وفي مسألة قتل الأسرى لتخويف العدو، نلاحظ أن هذا هو رأي الخليفة عمر بشأن أسرى بدر[٨٩] وقد نزلت آيات كريمة تؤيد وجهة نظره بقوله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[٩٠].

---

(٨٩) أبو زهرة: خاتم النبيين جـ٢ / ٧٦٩.

(٩٠) سورة الأنفال: الآيات ٦٧ - ٦٨.

يقول ابن عبد ربه : « إنَّ الخليفة عمر بن الخطاب # ضمّن هذه التوجيهات في كتابه التالي إلى سعد أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى اللَّه على كل حال فإنَّ تقوى اللَّه أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم للَّه ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم. فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من اللَّه يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم. ولا تعملوا بمعاصي اللَّه وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا إن أسأنا ، فربّ قوم سُلط عليهم شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل لَمَّا عملوا بمساخط اللَّه كفارَ المجوس : ﴿ **فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً** ﴾ واسألوا اللَّه العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل اللَّه ذلك لنا ولكم.

وترفّق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم(٩١) مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم يُنقص قوتهم. فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس(٩٢) والكراع(٩٣) وأقِم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يجمُّون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم

---

(٩١) لا تجشمهم : لا تكلفهم أمراً فيه مشقة . المعجم الوسيط جـ١ / ١٢٤ .

(٩٢) الأنفس : أرواح العباد . المعجم الوسيط ، مادة « نفس » جـ٢ / ٩٤٠ .

(٩٣) الكراع : اسم يجمع الخيل والسلاح . المعجم الوسيط : مادة « كرع » جـ٢ / ٧٨٣ .

وأمتعتهم. ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا مَن تثق بدينه، ولا يرزأ[٩٤] أحدا من أهلها شيئاً، فإنَّ لهم حرمة وذمة ابتليتَ بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها. فما صبروا لكم فتولَّوْهم خيراً ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئْتَ أدنى أرض العدو فأذك العيونَ بينك وبينهم ولا يخفَ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو منَ أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لاينفعك خبره، وإن صدقك بعضه، والغاش عين عليكَ وليس عيناً لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبثّ السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم. وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك. وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد. ولا تخصّ بها أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثنّ طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبةً أو ضيعةً ونكاية. فإذا عاينتَ العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك. واجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها، كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك. ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتحفَّظ من البيات جهدك، ولاتؤتى بأسير ليس لهَ عهد إلا ضربتَ عنقه لتُرهب بذلك عدو اللَّه وعدوك. واللَّه ولي أمرك، ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم. واللَّه المستعان»![٩٥].

---

(٩٤) يرزأ: رزأه: أصابه بمصيبة في ماله وولده. المعجم الوسيط: مادة «ر ز أ» جـ١ / ٣٤١.

(٩٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ١ / ٩٢ - ٩٣.

وعندما وصل سعد إلى شراف قبل العذيب، أقام بها وأرسل إلى الخليفة بخبره أنه نـزل بشراف وأن جيشـه منتشـر بين غضي إلى الجبانة(*)(٩٦).

وهنا نلاحظ أن سعداً تمسك بتوجيهات الخليفة بأن يفرق الجند ولا يجمعهم في مكان واحد قبل وصوله إلى القادسية، وأن يقسمهم إلى طلائع و سرايا وهذا ما ورد ذكره سابقاً(٩٧). فرد عمر عليه بقوله: «إذا جاءك كتابي هذا فعشِّر(٩٨) الناس، وعرِّف(٩٩) عليهم، وأمِّر(١٠٠) على أجنادهم، وعبِّهم(١٠١)، ومُرْ رؤساءَ المسلمين فليشهدوا(١٠٢) وقدِّرهم وهم شهود(١٠٣)، ثم وجِّههم إلى أصحابهم، وواعدهم(١٠٤) القادسية، واضمم إليك المغيرة

(*) الجبانة: الصحراء. ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ / ١١٦.

(٩٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٧.

(٩٧) انظر النص ص ٤١٧.

(٩٨) عَشِّرْ: اجعلهم عشرات عشرات، وعلى كل عشرة أمير أو قائد أو عريف، وهذا ما كان عليه الحال في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.
انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٢.
انظر مادة (عشر): المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٠٢.

(٩٩) عرِّف عليهم: اجعل عليهم عُرفاء. والعريف على القوم: الذي يدبر أمورهم ويقوم بسياستهم. المعجم الوسيط جـ٢ / ٥٩٥.

(١٠٠) أمِّر على أجنادهم: اجعل على الأجناد أمراءَ. المعجم الوسيط جـ١ / ٢٦.

(١٠١) عبهم: اجعلهم على تعبئة واستعداد للحرب.
مادة (عبأ). المعجم الوسيط جـ٢ / ٥٧٩.

(١٠٢) فليشهدوا: وجّه إليهم أمراً للحضور إلى مجلسك بشراف. المعجم الوسيط جـ١ / ٤٩٧.

(١٠٣) قدرهم وهم شهود: أعطهم قدرهم ومنزلتهم وهم حضور بمجلسك.
المعجم الوسيط جـ٢ / ٧١٨.

(١٠٤) واعدهم: حدد لهم يوماً من الأيام موعداً للقاء في القادسية.

بن شعبـة في خيله ، واكتب إليّ بالـذي يستقر عليه أمرهم»[*][١٠٥] .

وهنا نلاحظ توجيهات جديدة تتعلق بالخطة العسكرية التي سار عليها سعد خلال حملته إلى القادسية ، وهي أجزاء وحلقات يُكمل بعضها بعضاً ، تتطور شيئاً فشيئاً حسب الظروف والمستجدات ، وقد اكتملت هذه الخطة على أرض الواقع في القادسية ، إذ إن طبيعة الأرض التي سوف تدور عليها المعركة مهمة جداً في اكتمال الخطة العسكرية . وهذه التوجيهات التي أرسلها الفاروق إلى سعد قبل مغادرته شراف تجاه القادسية بأن يقسم جنده إلى عشرات عشرات ، على كل عشرة عريف وعلى العرفاء والجنود أمراء من فوقهم ، وأن يعبئ الجيش تعبئةً كاملة ، فيكونوا على أتم استعداد لأنهم اقتربوا من أرض العدو ، ثم أمره أن يجمع إليه أمراء الجنود حيث ذكرنا سابقاً أنهم كانوا متفرقين مع الجند بين غضيّ إلى الجبانة[١٠٦] كما أوصاه الخليفة أن يعامل أمراء الجند معاملة طيبة فيكرمهم ويحسن معاملتهم وهم شهود في مجلسه ، ثم يأمرهم فيعودوا إلى أماكنهم عند جنودهم بعد أن يواعدهم على اللقاء في القادسية في وقت يحدده لهم ، كما أوصاه أن يضم إليه المغيرة بن شعبة ، وقد سبق القول عنه أن سعداً وجهه إلى نواحي الأبلَّة (البصرة فيما بعد) حسب توجيهات الخليفة عمر[١٠٧] على سبيل المراقبة والحماية ، ثم أوصى الخليفة سعداً أن يظل على صلة به ، يزوده بالأخبار أولاً بأول خاصة فيما يتعلق

(*) أمرهم : أمرُ الفرس .

(١٠٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ / ٨٧ . انظر ابن الأثير : الكامل جـ ٢ / ٣١١ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٧ / ٣٧ .

(١٠٦) انظر ص٤١٣ من هذا البحث .

(١٠٧) انظر النص .

بالفرس. فرد عليه سعد بقوله: «لم يوجه القوم إلينا أحداً ولم يسندوا حرباً إلى أحد علمناه، ومتى ما يبلغنا ذلك نكتب به واستنصر اللّه فأنا بمنحاة دنيا عريضة دونها بأس شديد قد تقدم إلينا في الدعاء إليهم فقال: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾(*)[108]».

ثم نفذ سعد التعليمات، فيروي الطبري: «فبعث سعد إلى المغيرة فانضم إليه وإلى رؤساء القبائل فأتوه، فقدر الناس وعبّأهم بشراف وأمَّر أمراء الأجناد وعرَّف العرفاء وعرّف على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ، وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء[109] وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وعشّر الناس وأمر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام، وولى الحروب رجالاً فولى على مقدماتها[110] ومجنباتها[111] وساقتها[112] ومجرداتها[113]

(*) سورة الفتح: الآية ١٦ .

(١٠٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٠ - ٩١ .
انظر ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١٣ .

(١٠٩) إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

(١١٠) مقدّماتها: مقدمة الجيش تسبقه إلى الأمام، فكان أميرها زهرة بن عبداللّه بن قتادة بن الحوية. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ .

(١١١) مجنباتها: الميمنة والميسرة، فقد جعل سعد على الميمنة عبد اللّه بن المعتمِّ، وعلى الميسرة شرحبيل بن السمْط بن شرحبيل الكندي.
الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ .

(١١٢) الساقة: المؤخرة. وجعل عليها عاصم بن عمرو التميمي ثم العَمْري.
الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٨٨ .

(١١٣) مجرداتها: الخيل. وجعل عليها سلمان بن ربيعة الباهلي.
الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ .

وطلائعها[١١٤] ورجلها[١١٥] وركبانها[*][١١٦].

وجعل سعد بن أبي وقاص خالدَ بن عُرْفطة[١١٧] نائباً له[١١٨] . وقد وصف بروكلمان هذا التوزيع وصفاً خاطئاً ، فقال : إن العرب قاتلوا في القادسية كل قبيلة تحارب مستقلة عن الأخرى[١١٩] .

والصحيح أنهم كانوا يقاتلون معاً جنباً إلى جنب، وقد خالطوا عدوهم في اليوم الأول عندما احتدم القتال وهذا ما سيأتي معنا لاحقاً .

وقد أعد سعد نفسه ووطنها وقسم تقسيماته بشراف استعداداً للسير إلى القادسية عندما يأذن له الخليفة وقد أمده عمر بالأطباء وبعبد الرحمن بن ربيعة

---

(١١٤) طلائعها : الدوريات . وجعل عليها سواد بن مالك .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ / ٨٨ .

(١١٥) رجلها : المشاة . وجعل عليهم حمّال بن مالك الأسدي .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ / ٨٨ .

(*) رُكبانها : الإبل التي تحمل المؤن ، وجعل عليها عبد اللّه بن ذي السهمين الخثعمي .
الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ .

(١١٦) الطبري تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ .

(١١٧) خالد بن عُرفطة بن أبرهة بن سنان الليثي، حليف بني زهرة . مات بالكوفة سنة ٦٠هـ، وقيل : سنة ٦١هـ.

ابن عبدالبر : الاستيعاب جـ٢ / ٤٣٤ .

(١١٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٧ .

المسعودي : مروج الذهب جـ٢ / ٣٤٠ .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٣٨ .

(١١٩) برو كلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية / ٩٧ .

الباهلي (ذي النور)[١٢٠] الذي جعل إليه الأقباض[١٢١] وقسمة الفيء[١٢٢] وداعية الناس ورائدهم[١٢٣] سلمان الفارسي[١٢٤]، والترجمان هلال الهجري[١٢٥]، والكاتب زياد بن أبي سفيان[*][١٢٦]. وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان في جيش سعد تسعة وعشرون بدرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت

---

(١٢٠) عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي (ذو النور) هو أخو سلمان بن ربيعة الباهلي، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه، قتل شهيداً في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في بلاد الخزر سنة ٣٢ هـ.

ابن عبدالبر : الاستيعاب جـ ٢ / ٨٣٢ .

(١٢١) الأقباض : ما يحوزه المسلمون من أرض العدو بقتال، والمراد بذلك الغنائم.

المعجم الوسيط جـ ٢ / ٧١١ .

(١٢٢) الفيء : ما يحوزه المسلمون من أرض العدو دون قتال.

المعجم الوسيط جـ ٢ / ٧٠٧ .

(١٢٣) داعيتهم ورائدهم : الذي يرتاد للجيش مكاناً مناسباً للنزول.

(١٢٤) سلمان الفارسي : أبو عبدالله، صحب النبي ﷺ وخدمه وحدّث عنه، أصله من قرية يقال لها : « جيّ » من قرى أصفهان، هاجر إلى الشام ثم إلى الموصل ثم إلى المدينة قبل الإسلام فوقع في الرق، فأسلم على يد النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة. شهد الخندق وفتوح العراق وفارس، ومات بالمدائن ٣٤هـ، وقيل سنة ٣٦هـ، أو٣٧هـ.

الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ١ / ٥٠٥ - ٥٥٨ .

(١٢٥) هلال الهجري : لم أعثر له على ترجمة .

(*) زياد بن أبي سفيان : هو زياد بن أبيه، ويسميه بعضهم زياد بن سمية، نسبة إلى أمه، وهو زياد بن أبي عبيد الثقفي، استلحقه معاوية بن أبي سفيان بنسبه على أنه أخوه، ولد عام الهجرة وأسلم في خلافة الصديق رضي الله عنه، كان كاتباً للمغيرة بن شعبة عندما كان أميراً على البصرة، وكاتباً لأبي موسى الأشعري عندما كان أميراً على البصرة بعد المغيرة في خلافة عمر رضي الله عنه، يضرب به المثل في الدهاء والفطنة. كان أميراً على فارس في خلافة علي رضي الله عنه، ثم ولي البصرة والكوفة لمعاوية بن أبي سفيان. مات بالكوفة سنة ٥٣هـ.

الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٣ / ٤٩٤ - وما بعدها.

(١٢٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٨ .

له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة[١٢٧] رضوان اللّه عليهم جميعاً.

ثم قدم على سعد كتاب عمر يأمره فيه بالسير من شراف تجاه القادسية، وفي الكتاب توجيهات وإرشادات حرص الخليفة على تزويدها لقائد الحملة، وهي تدل على بعد نظر الخليفة وحرصه الشديد على أرواح المسلمين واهتمامه بمواصلة الفتوحات ونشر الإسلام، وقد عوّل كثيراً على معركة القادسية فحشد لها الإمكانيات اللازمة، وذكَّر سعداً بكثرة الفرس وعدّتهم الوافرة وغدرهم وبأسهم ومكرهم ومناعة بلادهم بما فيها من أنهار ومستنقعات، وقد ذكَّره بذلك ليتخذ الأسباب اللازمة والحيطة والحذر منهم، وقد جاء في كتابه له: «أما بعد، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على اللّه واستعن به على أمرك كله، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدّتهم فاضلة وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤودا[١٢٨] لبحوره[١٢٩] وفيوضه[١٣٠] ودآدئه[١٣١]، إلاّ أن توافقوا غيضاً من فيض[١٣٢]، وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤوهم الشد والضرب، وإياكم والمناظرة لجموعهم، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة

---

(١٢٧) ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١١. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٣٧.

(١٢٨) كؤود: بلاد شاقة. المعجم الوسيط جـ٢ / ٧٧١.

(١٢٩) لبحوره: أي لكثرة الأنهار والمياه والمستنقعات.

(١٣٠) فيوضه: المياه الفائضة، دلالة على كثرة المياه. المعجم الوسيط جـ٢ / ٧٠٨.

(١٣١) دآدئه: بلاد شديدة الظلمة. المعجم الوسيط جـ١ / ٢٦٧.

(١٣٢) غيضاً من فيض: قليل من كثير. المعجم الوسيط جـ٢ / ٧٠٨.

مكرة، أمرهم غير أمركم إلاّ أن تجادوهم، وإذا انتهيت إلى القادسية - والقادسية - باب فارس في الجاهلية - وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصُل[١٣٣]، وهو منزل رغيب خصيب[١٣٤] حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك[١٣٥] على أنقابها[١٣٦]، ويكون الناس بين الحجر والمدر، على حافات الحجر وحافات المدر والجراع[١٣٧] بينهما، ثم الزم مكانك، فلا تبرحه فإنهم إذا أحسُّوك أنغضتهم[١٣٨] ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم[١٣٩] وحدهم[١٤٠] وجدّهم[١٤١]، فإن أنتم صبرتم لعدّوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة، رجوت أن تُنْصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن

---

(١٣٣) الآصُل : البلاد الأصلية.

(١٣٤) رغيب خصيب : بلاد واسعة مرغوب فيها لخصوبة أرضها.

انظر مادة (رغب)، (خصب): المعجم الوسيط جـ١/ ٣٥٦- ٢٣٧ .

(١٣٥) مسالحك : مواضع يقيم فيها الجند بسلاحهم للمراقبة والمحافظة.

انظر هامش رقم: ١٠، ٢٥ .

(١٣٦) أنقابها : طرقاتها. والمنقب الطريق الضيق في الجبل.

المعجم الوسيط جـ٢ / ٩٤٣ .

(١٣٧) الجراع : الأرض الرملية. المعجم الوسيط جـ١ / ١٦٠ .

(١٣٨) أنغضتهم : جعلتهم يرتجفون ويضطربون. المعجم الوسيط جـ٢ / ٩٣٦ .

(١٣٩) خيلهم ورجلهم : الجيش من المشاة والفرسان.

(١٤٠) حدّهم : قوتهم وبأسهم. المعجم الوسيط جـ١ / ١٦٠ .

(١٤١) جدهم : اجتهادهم. المعجم الوسيط جـ١ / ١٠٩ .

وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة فإذا كان يوم كذا وكذا، فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذَيب الهجانات وعُذيب القوادس[١٤٢]، وشَرِّق بالناس وغرب بهم»[١٤٣].

إنها متابعة متواصلة من الخليفة لحملة سعد بن أبي وقاص فهو يجمع المعلومات ويزودها إلى قائد الحملة أولاً بأول، لتصبح الخطة العسكرية قبل المواجهة محكمة، ويضيف كتاب عمر الذي مرّ ذكره آنفاً حلقة جديدة من حلقات الاستعداد للقادسية، فهو ينبه القائد إلى تفوق الفرس بأعدادهم وعدتهم وبحصانة بلادهم، فيأمره بأن لا يتجاوز القادسية للقائهم، وهذا من باب التحديد لمكان المعركة الذي سوف يتخذه سعد، وهو اختيار موفق إلى أبعد الحدود، ويدل على بعد نظر الخليفة وخطته العسكرية، وحرصه الكبير على أرواح المسلمين، وعدم تعريضهم للمخاطر والمغامرة.

فالقادسية موقع عسكري مناسب بالنسبة للمسلمين، وفي غير صالح الفرس فهو أقرب ما يكون من أرض العرب، وهو ما يعرف اليوم بأرض السماوة[١٤٤]، حيث تقع الصحراء خلفه ويسهل الانسحاب إليها إذا لزم الأمر، وهذا من باب الاحتمال فيما لو حلّت الهزيمة بسعد فيسهل عليه الانسحاب إلى الصحراء ويمكنه الالتفاف حول الفرس فيما لو تابعوا

(١٤٢) عُذَيب القوادس، وعُذَيب الهجانات: موضعان بهما ماء، والقادسية بينهما.
ياقوت: معجم البلدان جـ٤ / ١٠٤.

(١٤٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٩.

(١٤٤) السماوة: وهي التي بين الكوفة والشام، وسميت بذلك لأنها أرض مستوية لا حجر بها. ياقوت: معجم البلدان جـ٣ / ٢٧٨.

سيرهم إلى أرض العرب، على حين تقع الأنهار والمستنقعات خلف الفرس في القادسية فتكون كارثةً عليهم إذا حلّت بهم الهزيمة.

وقد أمر الخليفة سعداً أن يستدرج الفرس إلى القادسية ثم يبادرهم بالهجوم وعدم المماطلة، كما نصحه بأن يقيم المسالح على أطراف البلاد للمراقبة والحماية والاستطلاع.

وكانت تعليمات الخليفة عند سعد محل عناية واهتمام وتنفيذ فتقدم إلى القادسية وعسكر بها وأقام بقصر قديس(١٤٥) ينتظر وصول الفرس. وأما عن استعداداتهم فقد ذكرت بعض المصادر أن الشكايات كثرت من أهل السواد ليزدجرد على ما فعله المسلمون بهم فاستدعى إليه رستم(١٤٦) وكلفه بمحاربة المسلمين قائلاً له: «إني أريد أن أوجهك في هذا الوجه وإنما يعدّ للأمور على قدرها وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهلَ فارس من أمر لم يأتهم مثله»(١٤٧).

وصلت أخبار رستم إلى سعد وأنه أقام بساباط(١٤٨) يحشد الجيوش

---

(١٤٥) قصر قُدَيس: يقع على حافة خندق سابور ذي الأكتاف بالقادسية، ويبعد عن القنطرة التي تقع على نهر العتيق نحو ميل.

الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٠ - ٩١.

وقد سماه اليعقوبي قصر العُذَيب. انظر تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٤٤.

(١٤٦) رستم: وصفه البلاذري. فقال: إنه من أهل الريّ. فتوح البلدان / ٢٥٦.

(١٤٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٧. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣١٤.

(١٤٨) ساباط: موضع على حافة نهر دجلة من ناحية الغرب، بينه وبين المدائن نهرُ دجلة، المدائن من شرقيه وساباط غربيه.

ياقوت: معجم البلدان جـ٣ / ١٨٧.

استعداداً للزحف تجاه المسلمين فأرسل بخبره إلى الخليفة عمر وقد جاء في كتابه له: «إن رستم قد ضرب عسكره بساباط دون المدائن[١٤٩] وزحف إلينا بالخيول والفيول وزهاء فارس (كثرتهم ومنظرهم) وليس شيء أهم إليَّ ولا أنا له أكثر ذكراً مني لما أحببت أن أكون عليه ونستعين به ونتوكل عليه وقد بعثت فلاناً وفلاناً وهم كما وصفت».[١٥٠] فردّ عليه الخليفة: «لا يكربنك[١٥١] ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به، واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث إليه[١٥٢] من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه[١٥٣]، فإن الله جاعل دعاءهم[١٥٤] توهيناً[١٥٥] لهم وفلجاً[١٥٦] عليهم واكتب إليَّ في كل يوم»[١٥٧].

---

(١٤٩) المدائن: جمع مدينة. وهي سبع مدن متصلة بعضها ببعض، على بعد نحو ستة فراسخ من بغداد، على حافة نهر دجلة من جهة الشرق، ضعف شأنها بعد بناء البصرة والكوفة، فتحها سعد بن أبي وقاص في خلافة عمر *.

ياقوت: معجم البلدان جـ٥ / ٨٨.

(١٥٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٢.

انظر ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٣٨.

(١٥١) لا يكربنك: الكرب: الحزن والغم، بمعنى: إياك أن يصيبك الغم والحزن لكثرتهم.

انظر مادة (كرب): المعجم الوسيط جـ٢ / ٧٨١.

(١٥٢) إليه: إلى يزدجرد ملك الفرس.

(١٥٣) يدعونه: إلى الإسلام.

(١٥٤) دعاءَهم: دعوتك للفرس وملكهم إلى الإسلام.

(١٥٥) توهيناً: تثبيطاً لمعنوياتهم. انظر مادة (وهن). المعجم الوسيط جـ٢ / ١٠٦٠.

(١٥٦) فلجاً: ظفراً. انظر مادة (فلج). المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٩٩.

(١٥٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٢. انظر ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١٥. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٣٨.

وقد التزم سعد أمر الخليفة فأرسل وفداً إلى يزدجرد لدعوته إلى الإسلام وعلى رأس هذا الوفد النعمان بن مقرن المزني(*)(١٥٨). وقد أشار البلاذري إلى هذا الوفد إشارة بسيطة فقال: «إن هذا الوفد مر في طريقه على رستم وهو معسكر بساباط فأرسلهم إلى يزدجرد، فغضب وأمرهم بالانصراف وقال: «لولا أنكم رسل لقتلتكم» وكتب إلى رستم يعنفه على إنفاذهم إليه»(١٥٩).

وقد أضافت مصادر أخرى أن يزدجرد قال للوفد: «اخرجوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إلى رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية(١٦٠)».

وقد أفادت بعض المصادر أن رستم رافق النعمان بن مقرن إلى يزدجرد فبلغه دعوة الإسلام، وخيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاستهان يزدجرد بهذه المطالب، وسخر من العرب فحمَّل الوفد وقراً من تراب، على أنه جزية رضي أن يدفعها للمسلمين على سبيل الاستهزاء فحمله الوفد فرحين مستبشرين بأن اللّه سيفتح عليهم بلاد يزدجرد(١٦١). وعلى أية حال

(*) النعمان بن مقرِّن المزني، صاحب رسول اللّه ﷺ، كان إليه لواء قومه يوم فتح مكة، ثم كان أمير الجيش الإسلامي في غزوة نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ٢ / ٣٥٦ - ٣٥٨.

(١٥٨) انظر الوفد المرافق للنعمان بن مقرِّن في الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٢.

(١٥٩) البلاذري: فتوح البلدان / ٢٥٨. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١٥.

(١٦٠) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢/ ١٤٣. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١٦. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٤١ - ٤٣.

(١٦١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٣ - ٩٤. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣١٦.

فإن هذه المراسلة قد تمت عندما كان سعد في القادسية، بدليل قول يزدجرد للنعمان بن مقرن المزني الذي ورد ذكره سابقاً[١٦٢].

ثم قَدِمَ كتابُ عمرَ على سعد وهو بالقادسية، وجاء فيه: «أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ومن غفل فليُحْدثْهُما والصبر الصبر فإن المعونة تأتي من اللّه على قدر النية، والأجر على قدر الحسبَة والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله، واسألوا اللّه العافية وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلاّ بالله، واكتب إليّ أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم، فإنه منعني من بعض ما أردت الكتاب به، قلةُ علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها واجعلني من أمركم على الجلية[١٦٣] وخف اللّه وارجه ولا تدل[١٦٤] بشيء واعلم أن اللّه قد وعدكم وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له فاحذر أن تصرفه[١٦٥] عنك ويستبدل بكم غيركم»[١٦٦].

ويلاحظ على هذا الكتاب أن الخليفة طلب مزيداً من المعلومات عن

---

(١٦٢) انظر مقولة يزدجرد للنعمان بن مقرّن في الصفحة السابقة.

(١٦٣) الجلية: الوضوح. المعجم الوسيط جـ١ / ١٣٢.

(١٦٤) الدالة: الشهرة. أي إياك أن تطلب الشهرة بعملك.

انظر مادة (دلل): المعجم الوسيط جـ١ / ٢٩٥.

(١٦٥) تصرفه: أي تصرف وعد اللّه عنك.

انظر مادة (صرف). المعجم الوسيط جـ١ / ٥١٣.

(١٦٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٩ - ٩٠.

أرض القادسية ومزيداً من المعلومات عن قيادة الفرس وجموعهم، وهذا يدل على أن الخليفة أرسل هذا الكتاب لسعد قبل وصول الكتاب السابق الذي أخبره فيه سعد عن قيادة رستم لجيش الفرس[١٦٧].

كما طلب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصفاً كاملاً عن بلاد العراق بين القادسية والمدائن كي يواصل توجيهاته وتعليماته لسعد بعد الجولة الأولى مع الفرس، حيث إن الخليفة وضع في اعتباره أن الحرب ستستمر معهم حتى يفتح اللّه على المسلمين عاصمتهم، فوصف البلاد له وصفاً دقيقاً مهم بالنسبة له حتى يكون تخطيطه للمستقبل عن علم ومعرفة، وهذا ما يعرف في وقتنا الحاضر بغرفة العمليات العسكرية، وكعادته في توجيه النصح أوصى الخليفة سعداً بالصبر وتقوى اللّه والاعتماد على اللّه والحذر من مباغتات العدو.

وقد جاء الرد سريعاً من سعد إلى الخليفة يصف له بشمولية واضحة الأرض التي يقف عليها والعدو الذي ينتظر منازلته فوضعه في الصورة بأنه يقيم على أرض القادسية من خلفه خندق سابور وأمامه نهر العتيق وأن عن يسار القادسية من أعلى جهة الشمال سهل أخضر يقع بين طريقين يؤديان إلى الحيرة وعن يمين القادسية جهة الجنوب حتى الولجة[١٦٨] مستنقعات مما يفيض من نهر الفرات، كما أخبره عن أهل السواد الذين صالحهم خالد بن الوليد سابقاً بأنهم نقضوا الصلح وانضموا إلى الفرس، وأن قيادتهم لا زالت

---

(١٦٧) انظر نص الكتاب ص٤٢٨ من هذا البحث.

(١٦٨) الولجة: أرض منخفضة أسفل القادسية تجاه البصرة، فيها فيوض من مياه نهر الفرات. ويطلق عليها البطيحة. انظر الخريطة رقم ١ ص٤٨٣.
ياقوت: معجم البلدان جـ٥ / ٤٤١.

بيد رستم وأن ما يجري بينه وبين الفرس مناوشات بين فرق استطلاعية للمسلمين مع أهل القرى المجاورة على حافتي الفرات قبل وصول رستم إلى القادسية، فيقول سعد في كتابه للخليفة: «إن القادسية بين الخندق[(١٦٩)] والعتيق[(١٧٠)] وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف[(١٧١)] لاحٌ[(١٧٢)] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر[(١٧٣)] وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحضوض[(١٧٤)] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[(١٧٥)] والحيرة، وأن

---

(١٦٩) الخندق: خندق سابور ذي الأكتاف، أحد ملوك الفرس، حفره خوفاً من العرب، من شمال الحيرة متجهاً إلى الجنوب غرب الفرات حتى نواحي الأبلّة (البصرة) ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب حوالي ٩٠٠ كم. انظر الخريطة رقم ١ ص٤٨٣. ياقوت: معجم البلدان جـ٢ / ٤٤٨.

(١٧٠) العتيق: واحد من عدة أنهار صغيرة متفرعة من نهر الفرات قرب مدينة هيت وهي نهر سورا وهو أكبرها، ويسمى نهر حلّة بني مزيد، ونهر الملك (نهر صرصر) ونهر عيسى بن علي، ونهر كوثا، ونهر سوق أسد، ونهر الصراة، ونهر الكوفة، ونهر الفرات العتيق. وهذه الأنهار المتفرعة من الفرات تمر في أرض السواد جنوب هيت فتسقي الزروع، وما فضل منها يلتقي مرة أخرى مكونة النهر الرئيسي نهر الفرات الذي يلتقي مع نهر دجلة قبل مصبهما في الخليج العربي - الذي أطلق عليه ياقوت الحموي بحر الهند -. انظر الخريطة رقم١، رقم ٢ ص٤٨٣. ياقوت: معجم البلدان جـ٤ / ٢٧٤.

(١٧١) جوف: منخفض. انظر مادة (جوف). المعجم الوسيط جـ١ / ١٤٧

(١٧٢) لاحٌ: اتجه.

(١٧٣) الظهر: طريق البر، ما غلظ من الأرض وارتفع.

المعجم الوسيط جـ٢ / ٥٧٨.

(١٧٤) الحضوض: نهر كان بين الحيرة و القادسية متفرع من نهر العتيق.

ياقوت: معجم البلدان جـ٢ / ٣١٤.

(١٧٥) الخورنق: قصر على بعد نحو ميل من الحيرة شرقاً. بناه رجل يقال له سنمار إلى النعمان بن امرىء القيس بن يعرب بن قحطان، بناه على مراحل وحوله سور عظيم. ياقوت: معجم البلدان جـ٢ / ٤٥٨ - ٤٦١.

ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم[176] وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي[177] ألب[178] لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وأن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم فهم يحاولون إنغاضنا[179] وإقحامنا[180]، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم وأمر اللّه بعد ماض وقضاؤه مسلّم إلى ما قدِّر لنا وعلينا فنسأل اللهَ خير القضاء وخير القدر في عافيةٍ»[181].

وقد جاء في فتوح البلدان في رواية له عن الواقدي أن رستم تقدم من ساباط إلى الحيرة فأقام بينها وبين السّيلحيّن[182] أربعة أشهر لا يتقدم إلى القادسية ولايقاتلهم[183]، كما جاء عن ابن كثير أن المدة بين خروج رستم من

---

(١٧٦) فيوض مياههم : مما يفيض من نهر الفرات لأنها أرض منخفضة، انظر الخريطة رقم ١، ص٤٨٣ وانظر الهامش رقم ١٣٦ .

(١٧٧) قَبْلي : الذين صالحهم خالد بن الوليد سابقاً من أهل السواد. انظر ص ٤٠١ من هذا البَحث.

(١٧٨) ألْبٌ : تألبوا : تجمعوا. تضافروا مع الفرس لمحاربة المسلمين.

انظر مادة (ألب) : المعجم الوسيط جـ١ / ٢٣ .

(١٧٩) إنغاضنا : يحاولون إثارتنا كي نضطرب ونرتجف.

انظر مادة (نغض). المعجم الوسيط جـ٢ / ٩٣٦ .

(١٨٠) إقحامنا : (قحم): رمى بنفسه في غير روية.

انظر مادة (قحم) : المعجم الوسيط جـ٢ / ٧١٦ .

(١٨١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٠ .

(١٨٢) السيلحين : موضع بين الكوفة والقادسية قرب الحيرة ويقال له سيلحون، لأن كسرى كان يضع به مسالح للحماية من العرب، والمسالح : قوم يحملون السلاح يرتبون في الثغور والمخافات، واحدهم مسلحي.

ياقوت : معجم البلدان جـ٣ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(١٨٣) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٥٦ .

ساباط إلى القادسية كانت أربعة أشهر[١٨٤]، إلاّ أنني استبعد ذلك إذ إن إقامة سعد في القادسية لم تتجاوز شهراً أو شهرين[١٨٥] حتى وقعت الهزيمة على الفرس ولكنني أعتقد أن تلك المدة التي تحدث عنها المؤرخون السابقون كانت مدة استعداد رستم بساباط ومسيرته حتى وصل إلى القادسية.

وقد أيدّ الخليفة خطة سعد بالإقامة في القادسية حسب وصفه لها وأضاف له تعليمات جديدة أن يقتحم عليهم عاصمتهم المدائن بعد أن يحقق نصراً عليهم حتى لا يفسح لهم مجالاً للتجمع مرة أخرى، فقد جاء في كتابه له: «قد جاءَني كتابك وفهمته فأقم بمكانك حتى ينغض اللّه لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها فإن منحك اللّه أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله»[١٨٦]. وفي رواية أخرى للطبري أن الخليفة بعث بالكتاب التالي لسعد يقول له فيه: «إني قد ألقي في روعي[١٨٧] أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموه، فاطّرحوا[١٨٨] الشك، وآثروا التقية[١٨٩] عليه، فإن

(١٨٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٣٨.

(١٨٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٩٦.

ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣١٤.

(١٨٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٩٠.

(١٨٧) روعي: قلبي. أُلقي في روعي: قذف اللّه في قلبي.

انظر المعجم الوسيط جـ١/ ٣٨٢.

(١٨٨) اطّرحوا عنكم الشك: باعدوا عنكم الشك.

انظر مادة (طرح). المعجم الوسيط جـ٢/ ٥٥٣.

(١٨٩) التَّقيَّة: أي لا تظهروا نواياكم للعدو، والتقية أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن، مصانعة الناس في دولتهم تحرزاً من التلف.

لاعب[١٩٠] أحد منكم أحداً من العجم بأمان[١٩١] ، أو قرفه[١٩٢] بإشارة أو بلسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك مُجرى الأمان، وإياكم والضحك، والوفاء الوفاء، فإن الخطأ بالوفاء بقية[١٩٣] ، وإن الخطأ بالغدر الهلكة، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم[١٩٤] وإقبال ريحهم ، واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم»(*)[١٩٥] .

وهنا نلاحظ أن الخليفة حرص على التواصل مع سعد يحثه على الصبر ويحذره من التردد والشك والضعف، ويوصيه بالتمسك بالعهود والمواثيق، ويلاحظ أن لهذه النصيحة علاقةً بأهل السواد الذين صالحهم خالد بن الوليد سابقاً[١٩٦] ثم نقضوا عهودهم وانضموا إلى الفرس[١٩٧] وقد حرص الخليفة

---

(١٩٠) لاعب : لعب معه . وفهم العدو من ذلك الجد، فعليكم أن تجروا ذلك مجرى الجد.
انظر مادة (لعب). المعجم الوسيط جـ٢ / ٨٢٧ .

(١٩١) بأمان : باطمئنان. جعله آمناً.

انظر مادة (أمِنَ). المعجم الوسيط جـ١ / ٢٨ .

(١٩٢) قرفه : عابه. انظر مادة (قرف). المعجم الوسيط جـ٢ / ٧٢٩ .

(١٩٣) بقية : الباقي من الشيء، ﴿**بقية الله خير لكم**﴾. وهو ما ادخر عنده من الثواب انظر مادة (بقي) المعجم الوسيط جـ١ / ٦٦ .

(١٩٤) ريحكم : قوتكم. المعجم الوسيط جـ١ / ٣٨١ .

(*) توهينهم : إضعاف شأنهم وقوتهم.

انظر : مادة (وهن) المعجم الوسيط جـ ٢ / ١٠٦٠ .

(١٩٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٠ .

(١٩٦) انظر هامش رقم ١٤ .

(١٩٧) انظر كتاب سعد إلى الخليفة عمر رضي اللّه عنه ص ٤٣٢من هذا البحث.

على احترام العهود والمواثيق مع هؤلاء في هذا الوقت بالذات للحاجة الماسة إلى تحييد أهل السواد عن مساعدة الفرس لتوهينهم وإضعاف موقفهم.

ويفيد الطبري من رواياته المتعددة أن تموينات سعد كانت تأتيه وهو بالقادسية من المدينة المنورة بالإضافة إلى ما يحصل عليه من الغارات في أرض العراق ما بين الحيرة والبصرة[198].

وتفيد إحدى روايات الطبري عن كرب بن أبي العكلي وكان في المقدّمات أيام القادسية أن سعداً أكمل استعداداته، فبينما كان يقيم بقصر قديس وخلفه الخندق وأمامه جيشه انتظاراً لقدوم رستم، قدَّم سعد أمامه زهرة بن الحوية[199] أمير المقدّمات فأقام بحيال القنطرة[200] على نهر العتيق على حين كانت نساء المسلمين اللاتي خرجن بصحبة الجيش يقمن بالعذيب ومعهن نفر من المسلمين لحمايتهن وعليهم غالب بن عبد اللّه الليثي[201]، كما عبَّأ سعد جيشه بقيادة خالد بن عُرفطة نائبه وعيّن على القلب قيس بن هبيرة[202] وعلى

---

(١٩٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٣/ ٤٩٥ جـ٤ / ٩١- ٩٣ .

ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٣ - ٣١٤ .

(١٩٩) زهرة بن الحوية بن عبد اللّه التميمي السعدي. أوفده ملك هجر (قصبة البحرين وقاعدتها) المنذر بن ساوي بعد إسلامه، إلى النبي ﷺ، فأسلم زهرة وأقام بالمدينة بصحبة النبي ›، تفقه في الدين وشهد فتوح العراق، وتراسل مع رستم قبل وقعة القادسية، استشهد في محاربة الخوارج سنة ٧٧هـ. ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ / ٢٥٨ . ابن عبدالبر : الاستيعاب جـ٤ / ١٤٤٨ . ابن الأثير : أُسد الغابة جـ٢ / ٢٠٦ . ابن حجر : الإصابة جـ٣/ ١٣ .

(٢٠٠) القنطرة : جسر على نهر العتيق. انظر الخريطة رقم١ ، رقم ٢ ص٤٨٣ .

(٢٠١) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٤ .

(٢٠٢) قيس بن هبيرة : لم أعثر له على ترجمة.

الميمنة شرحبيل بن السِّمْط[٢٠٣] وعلى الميسرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص[٢٠٤]، وعلى الرجالة قيس بن خريم[*][٢٠٥].

ويؤخذ على هذه الرواية أن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص لم يكن بصحبة سعد حتى هذه اللحظة ، إذ جاء على رأس مدد من الشام[٢٠٦] فوصل في أثناء معركة القادسية كما سيأتي معنا لاحقاً.

وقد ذكر الطبري في رواية له عن السري بن يحيى أن الذين حضروا القادسية كانوا أكثر من اثنين وثلاثين ألفاً، أُسهم لنحو من ثلاثين ألفاً منهم، وهؤلاء هم مجموع ماجاء من المدينة وما انضم إليهم من إمدادات بعد ذلك، وماكانوا سابقاً في العراق مع المغيرة بن شعبة والمثنى بن حارثة الشيباني، والذين جاؤوا مدداً من الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص[٢٠٧] أما

---

(٢٠٣) شَرحبيل بن السمْط بن شرحبيل الكندي. أدرك النبي ﷺ، كان أميراً لمعاوية ابن أبي سفيان على حمص ومات بها سنة ٤٠هـ.

ابن عبدالبر : الاستيعاب جـ٢ / ٦٩٩ .

(٢٠٤) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري القرشي. يلقب بالمرقال، ولد في حياة النبي ﷺ وشهد اليرموك فذهبت عينه، وشهد فتوح العراق. قتل في معركة صفين.

الدينوري : الأخبار الطوال / ١٤٠ . الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٣/ ٤٨٦ .

(*) قيس بن خريم : لم أجد له ترجمة.

(٢٠٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٠ وما بعدها .

(٢٠٦) الدينوري : الأخبار الطوال / ٩٤ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٢٠ .

(٢٠٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٨٧ وما بعدها .

انظر المسعودي : مروج الذهب جـ٢ / ٣٢٠ .

الفرس فقد جاء في بعض المصادر التاريخية أنهم بلغوا مائة وعشرين ألفاً من الجند والفرسان والأتباع والمشاة.[٢٠٨] على حين جاء في مصادر أخرى أنهم كانوا ستين ألفا[٢٠٩] وأرى أن الرواية الثانية اقتصرت على الجند النظاميين فقط قبل أن يلحق بهم الأتباع . وقد تقدم رستم بهؤلاء فجعل على مقدمته الجالنوس في أربعين ألفاً، وجعل على ميمنته الهرمزان، ومهران بن بهرام على الميسرة وعلى ساقته البيرزان[٢١٠]، وقد سبقه الجالنوس إلى الحيرة[٢١١]، ثم تقدم رستم وراءَه من ساباط إلى كوثي[٢١٢] ثم إلى بُرْس[*][٢١٣]. ثم تقدم الجالنوس إلى النجف[٢١٤] ثم إلى السيلحين وواصل طريقه حتى أقام بحيال القنطرة على نهر العتيق في مواجهة زهرة بن الحوية أمير المقدمات في جيش سعد.[٢١٥]

---

(٢٠٨) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٢٩ . خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط/ ١٣١ - ١٣٢ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٨، ١٠١ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ١ / ٢٨ .

(٢٠٩) المسعودي : مروج الذهب جـ٢ / ٣٢٠ . الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ٢ / ١٩ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٢٨، ٤٣ .

(٢١٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٧ - ٩٨. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٣٨ .

(٢١١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٩ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٧ .

(٢١٢) كوثي : موضع بسواد العراق قرب بابل. ياقوت : معجم البلدان جـ٤ / ٥٥٣، وبابل بلدة وناحية ما بين الكوفة والحلّة. ياقوت : معجم البلدان جـ١ / ٣٦٧ .

(*) بُرس : موضع بأرض بابل. ياقوت : معجم البلدان جـ١ / ٤٥٦ .

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٨ .

(٢١٤) النجف : مدينة قرب الكوفة. ياقوت : معجم البلدان جـ٥ / ٣١٣ .

(٢١٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٩ - ١٠٠ .

ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣١٨ - ٣١٩ .

انظر ص٤٣٦ من هذا البحث حين كلف سعدٌ زهرة بن الحوية أن يعسكر في هذا المكان.

وقد ذكرت المصادر التاريخية أن مراسلات جرت بين سعد بن أبي وقاص وبين رستم قبل وصوله إلى نهر العتيق[٢١٦]، وقد جاء عن اليعقوبي أن هذه المراسلات جرت عندما كان رستم في النجف[٢١٧]، على حين قال آخرون إن هذه المراسلات وقعت أولاً بين رستم وزهرة بن الحوية أمير المقدمات لسعد وكان مقيماً غرب القنطرة على نهر العتيق، وعرض رستم على زهرة بن الحوية عودة المسلمين إلى بلادهم، فأجابه زهرة بن الحوية يدعوه إلى الإسلام كشرط لذلك.[٢١٨] فطلب منه أن يبلّغ سعداً ليرسل إليه رسولاً يتفاوض معه فأرسل له سعد رسلاً خيروه بين الإسلام أو الجزية أو الحرب ولا شئ غير ذلك فرفض رستم هذه العروض[٢١٩]، وبعد أن فشلت هذه السفارات، أقسم رستم قائلاً: «والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين»[٢٢٠].

وقد ذكر الدينوري أن هذه المراسلات استمرت شهراً[٢٢١]، ثم أرسل رستم

(٢١٦) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٥٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٩٣ - ٩٤، ١٠٥ - ١١٢، ١٣٨. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣١٩ - ٣٢٢. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٤٠.

(٢١٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢/ ١٤٤.

(٢١٨) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٥٧. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٩٣، ١٠٥، ١٣٨. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٢٠ - ٣٢٢. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٤٠.

(٢١٩) أبو يوسف: كتاب الخراج/ ٢٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ٩٣، ١٠٥ - ١١٢، ١٣٨. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٢٠-٣٢٢.

(٢٢٠) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٥٧.

(٢٢١) الدينوري: الأخبار الطوال/ ٩٤.

إلى سعد : «أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم » فرد عليه سعد : «بل تعبرون إلينا»[222] فأمر رستم بردم جانب القنطرة على نهر العتيق بالزرع والتراب والقصب حتى أصبح طريقاً لهم ، فعبروا على الردم فعسكروا مقابل المسلمين ، فكانوا جميعاً ما بين الخندق ونهر العتيق.[223]

ونلاحظ هنا أن رستم وقع في المصيدة التي خطط لها الخليفة ونفذها قائد الحملة بأن يدخل الفرس إليه فيكون النهر خلفهم حتى إذا حلّت بهم الهزيمة سقطوا في النهر.

وكانت المراسلة بين سعد والخليفة يومية[224] وقلوب أهل الجزيرة العربية متعلقة بأخبار سعد لما يعلقونه من آمال على حملته بفتح العراق وفارس واقتحام المدائن كما صّرح بذلك الخليفة سابقاً.[225] وما تحمله من مخاطر لو لحقت بالمسلمين الهزيمة، يقول الطبري في رواية عن السري بن يحيى : «لما أتى عمرَ بن الخطاب نزولُ رستم القادسية، كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله» .[226] وعلى صعيد الفرس فيما لو لحقت الهزيمة بسعد فإن رستم كان ينوي الزحف إلى داخل الجزيرة العربية، وقد صرّح بذلك إلى يزدجرد فقد قال

---

(٢٢٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١١٢ - ١١٣ .

ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٢٣ .

(٢٢٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١١٣ .

(٢٢٤) انظر رسالة الخليفة عمر لسعد ص ١٢ .

(٢٢٥) انظر رسالة الخليفة عمر لسعد ص ١٤ .

(٢٢٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ / ١٤٤ .

له حين ودعه في المدائن : «إن فتح اللّه علينا القوم فهو وجهنا إلى ملكهم في دارهم حتى نشغلهم في أصلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المسالمة أو يرضوا بما كانوا يرضون به» .[٢٢٧] ولشدة اهتمام يزجرد بحملة رستم أقام لها نظاماً للمراسلة لنقل أخبارها أولاً بأول بترتيب رجال من الفرس بلغ عددهم ألفي رجل وقفوا في أماكن متفرقة على صف طويل بين القادسية والمدائن بحيث يسمع كل واحد منهم صاحبه الذي بحياله حتى يصل الخبر إلى يزدجرد[٢٢٨] وإذا كانت المسافة بين القادسية والمدائن تصل إلى ٢٢٠ كم فتكون المسافة بين كل واحد منهم وصاحبه مائة وعشرة أمتار. وقد طالت مدة المرض الذي أصاب سعد بن أبي وقاص بعرق النسا مما أقعده عن متابعة القيادة بنفسه فأمـّر خالد بن عُرفطة ليواصل القيادة نيابةً عنه[٢٢٩] وتقول بعض الروايات إن أبا محجن الثقفي[٢٣٠] . اعترض على ذلك فسجنه سعد في قصر

---

(٢٢٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ / ٩٨ .

(٢٢٨) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٢٧ .

(٢٢٩) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٣١ .

(٢٣٠) أبو محجن الثقفي : مالك بن حبيّب وقيل عبد اللَّه بن حبيّب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن قسي الثقفي . أسلم يوم أسلمت ثقيف، وسمع عن النبي ﷺ وروى عنه . وهو من الأبطال في الجاهلية والإسلام، قيل إنه كان يشرب الخمر بكثرة، فجلده الخليفة عمر عدة مرات، ثم نفاه فهرب والتحق بسعد بن أبي وقاص في العراق قبل القادسية، فكتب به إلى الخليفة وحبسه بقصر قديس، فطلب من امرأة سعد أن تفك قيده ليقاتل الفرس في اليوم الأول من أيام القادسية على أن يعود إلى قيده فخلّت سبيله وأعطته البلقاء فرس سعد فأبلى في القادسية بلاء حسناً ثم عاد إلى محبسه، ثم كلمت به سلمى زوجها فأطلق سراحه فقاتل في القادسية ولم يشرب الخمر بعدها ولم تذكر المصادر والمعاجم سنة وفاته إلاّ أن قبره موجود بأذربيجان .

ابن عبدالبر : الاستيعاب جـ٤ / ١٧٤٦ . =

قديس[٢٣١] على حين تقول روايات أخرى أن السجن كان لسبب آخر غير ذلك.[٢٣٢] وهذا ما أرجحه وأميل إليه، حيث أكدته بعض المصادر التاريخية.[٢٣٣]

أيام القادسية:

اختلفت المصادر التاريخية في تحديد زمان معركة القادسية، فذكر بعض المؤرخين أنها وقعت سنة ١٤هـ.[٢٣٤] وذكرها آخرون بأنها وقعت سنة ١٥هـ.[٢٣٥] وجاء عند البعض الآخر أنها سنة

= وفي رواية للمسعودي: أن سبب سجنه فيما ذكره أبو محجن نفسه حين سألته سلمى بنت حفصة زوجة سعد: يا أبا محجن، في أي شيء حبسك هذا الرجل؟ - تعنى سعداً - قال: واللّه ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فأصف القهوة وتداخلني أريحية فألتذ بمدحي إياها فحبسني لأني قلت فيها:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

المسعودي: مروج الذهب جـ٢/ ٣٢٥.

(٢٣١) إحدى روايات الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١١٣ - ١١٦.
ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٤٣.

(٢٣٢) انظر هذا السبب في الهامش رقم ٢٣٠ كما جاء على لسان أبي محجن الثقفي نفسه.

(٢٣٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٣٨. المسعودي: مروج الذهب جـ٢/ ٣٢٥. ابن عبدالبر: الاستيعاب جـ٤/ ١٧٤٦. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٢٥.

(٢٣٤) أبو يوسف: كتاب الخراج ٢٨ - ٢٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ ٤/ ١١٢ وما بعدها. المسعودي: مروج الذهب جـ ٢/ ٣٢١. ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٧/ ٣٥،٤٣.

(٢٣٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط/ ١٣١ - ١٣٢. المسعودي: في رواية غير الرواية السابق ذكرها هنا. عن محمد بن اسحاق: مروج الذهب جـ ٢/ ٣٢٨.

١٦هـ[٢٣٦]، إلاّ أن تسلسل الأحداث منذ خروج سعد من المدينة وما جرى من مراسلات بينه وبين الخليفة، وبينه وبين يزدجرد ورستم وما جرى بعد ذلك تدل كلها على أن معركة القادسية قد وقعت في شهر شعبان سنة ١٥هـ وكان سعد قد أعد جيشه ليبدأ الهجوم من بعد صلاة ظهر يوم الخميس على أرجح الروايات بعد أن يسمعوا التكبيرة الرابعة[٢٣٧] أما الفرس فكان أبرز ما ظهر فيهم الفيلة في المجنبتين وفي القلب عليها صناديق ورجال أُعدت للهجوم[٢٣٨]، وقد شغلت هذه الفيلة المسلمين في أول أيام القادسية والذي أطلق عليه يوم أرماث[٢٣٩]، ولكن المسلمين صبروا لها بالحرص على الشهادة وتحقيق النصر، وسعد يراقب المعركة من فوق قصر قديس[٢٤٠]. واستمرت المعركة طيلة هذا اليوم حتى جاء الليل فهدأ القتال ورجع الفريقان إلى مواقعهم وأطلق على هذه الليلة ليلة الهدأة(*)[٢٤١].

---

(٢٣٦) البلاذري. في رواية له عن الواقدي: فتوح البلدان / ٢٥٦. المسعودي. نفس رواية الواقدي: مروج الذهب جـ ٢ / ٣٢٨. الذهبي: العبر في خبر من غبر جـ ١ / ١٩. ابن حجر: الإصابة. ضمن تعريف سعد بن عبيد القارىء جـ ٢ / ٣١.

(٢٣٧) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١١٣ - ١١٦. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٢٥. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٤٣.

(٢٣٨) أبو يوسف: كتاب الخراج / ٣١. الدينوري: الأخبار الطوال / ٩٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١١٦.

(٢٣٩) يوم أرماث: أطلق على اليوم الأول بسبب اختلاط المسلمين بالفرس في هذا اليوم أثناء القتال.

(٢٤٠) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٤٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١١٨. ابن العماد: شذرات الذهب جـ١ / ٢٨.

(*) ليلة الهدأة: بسبب الهدوء الذي حصل في هذه الليلة بعد قتال مرير في اليوم الأول.

(٢٤١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١١٩ - ١٢٠، ١٣٩. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٢٧.

وكانت زوجة سعد سلمى بنت حفصة (الزبراء) أرملة المثنى بن حارثة الشيباني تراقب المعركة من فوق قصر قديس فعلقت على ذلك بقولها : «وامثنياه ولا مثنى اليوم» فلطم سعد وجهها ، فقالت : «أغيرة وجبناً»[٢٤٢] فقال: «واللّه لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذريني وأنت ترين ما بي»[٢٤٣] .

وتواصل القتال في اليوم التالي (الجمعة) وتدبّر الناس أمر الفيلة فألبسوا الإبل براقع وتقدمت تحميها خيول المسلمين، فجعلت الفيلة تفر منها، وثبت الفريقان كل منهما للآخر واقتتلوا قتالاً شديداً.[٢٤٤]

وأبرز ما في هذا اليوم وصول الطلائع الأولى من الإمدادات التي جاءت من الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، حين كتب الخليفة عمر إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح[٢٤٥] يأمره بصرف أهل العراق أصحاب خالد بن الوليد

---

(٢٤٢) لأنه لم يشترك في القتال، للمرض الذي أقعده بقصر قديس، ويسمى مرض عرق النسا، وهو التهاب يصيب أحد الأعصاب بسبب انزلاق غضرفي بين فقرات الجزء السفلي للعمود الفقري، فيؤلم كثيراً ويعيق الحركة ويسمى عرق النسا لأن آلامه تنسي صاحبه أي شيء آخر لشدته.

(٢٤٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١١٩ - ١٢٠، ١٣٩ .

انظر ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٢٧ .

(٢٤٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١١٩ - ١٢٠ .

ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٢٨ .

(٢٤٥) أبو عبيدة عامر بن الجراح القرشي الفهري المكي، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، شهد له النبي ﷺ بالجنة، وسماه أمين هذه الأمة، شهد بدراً وأحداً، رشحه الخليفة أبو بكر رضي اللّه عنه للخلافة يوم السقيفة، هاجر إلى الحبشة والمدينة، ندبه الصديق لفتح بلاد الشام سنة ١٢هـ وفتح اللّه على يديه هذه البلاد، توفي بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ١ / ٥ - ٢٣ .

فسرحهم إلى العراق وعددهم ستة آلاف[٢٤٦] وكان على مقدمتهم القعقاع بن عمرو ، فأطلق على هذا اليوم : يوم أغواث لذلك[٢٤٧] ، وعلى الليلة الثانية من ليالي القادسية : ليلة السواد [*][٢٤٨]. وقد فعل القعقاع في هذا اليوم الأفاعيل بجموع الفرس فكرَّ عليهم أكثر من ثلاثين كرةً يحصدهم حصداً وقتل من قادتهم بهمن جاذوية والبيرزان.[٢٤٩]

ولاشك بأن متابعة الخليفة عمر رضي اللَّه عنه للحملة التي قادها سعد بن أبي وقاص إلى العراق قد أتت ثمارها ، إذ إن الخليفة كان يوجه قائد الحملة باستمرار ويزوده بالمعلومات أولا بأول ، ويمده بالإمدادات اللازمة ، ومنها تلك التي جاءت من الشام ووصلت القادسية في الوقت المناسب وهذا يدل على سرعة الحركة عند المسلمين لتلبية الحاجات عند الضرورة ، فهؤلاء ذهبوا من العراق إلى الشام أصلاً عندما كانت الحاجة ماسة لهم هناك لمساعدة إخوانهم ، فكان لهم ما كان في اليرموك وفتح دمشق .

ثم تغيَّر الموقف فأصبح إخوانهم في العراق بحاجة إليهم في القادسية ، فتحركوا بسرعة وقطعوا مسافة كبيرة (لا تقل عن ١٠٠٠كم) لنجدة إخوانهم وشاركوهم في القادسية فعلاً ، فكان لهم ما كان في هذه المعركة وما بعدها ، كما يدل وصول هذه النجدات في الوقت المناسب على المتابعة

---

(٢٤٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٢٠ وما بعدها .

(٢٤٧) بسبب وصول طلائع النجدات التي جاءت من الشام في هذا اليوم .

(*) ليلة السواد : سميت بذلك بسبب ظلمة تلك الليلة .

(٢٤٨) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٢٨ .

(٢٤٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٢٠ .

المتواصلة من الخليفة عمر على ما يجري في العراق وبلاد الشام وعلى قدرته الكبيرة على إدارة سير الفتوحات في بلاد بعيدة عن مركز القيادة والتخطيط، ويدل أيضاً على أهمية البريد وسرعة وصوله في نقل المعلومات والأخبار أولاً بأول إلى أبعد الحدود، وهذا ما كان الخليفة يحرص عليه ويوصي به، فقد رأيناه سابقاً يشدد عليه كثيراً في مراسلاته مع سعد، ثم إنها تدل على سرعة التنفيذ بدقة مما يسهل كثيراً على الخليفة نفسه أن يدبر الأمور ويعالج المواقف عن معرفة وعلم، بثبات وسرعة وحزم وقدرة.

وقد قاتل في الليلة الثانية من ليالي القادسية أبو محجن الثقفي، فترجى سلمى (زوجة سعد) كي تفك قيوده فيقاتل على أن يعود إلى محبسه ثانيةً فأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فخرج وقاتل قتال الأبطال، ثم عاد إلى محبسه كما وعد ووضع القيد في رجليه، فلما صارحت سعداً زوجتُه بما فعلت واعتذرت عما قالته في اليوم السابق، فقبل عذرها وأطلق أبا محجن[٢٥٠].

وقد جاء في الطبري أن خسائر الطرفين في هذا اليوم كانت كبيرة وأن شهداء المسلمين وجرحاهم كانوا ينقلون إلى العذيب الذي تقيم فيه نساء المسلمين فيسعفن الجرحى ويدفن القتلى في وادي مشرِّق بجوار العذيب[٢٥١].

---

(٢٥٠) أبو يوسف: كتاب الخراج / ٣١ . الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٢٣ -١٢٤ . المسعودي: مروج الذهب جـ٢ / ٣٢٣ - ٣٢٥ . ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٣١ . ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٤٤ .

(٢٥١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٢٤ . انظر المسعودي: مروج الذهب جـ٢ / ٣٢٦ .

وتواصل القتال في اليوم الثالث الذي أطلق عليه : يوم عُماس[٢٥٢] ، وامتد إلى الليل فأطلق على تلك الليلة : ليلة عُماس[٢٥٣] ، وتوالى وصول الإمدادات التي جاءَت من الشام ، وفقدت الفيلة هيبتها كما كان في اليومين السابقين حيث أعد لها المسلمون العدة يضربونها في عيونها فتولي مدبرة باتجاه نهر العتيق وهي تدوس الفرس في طريقها[٢٥٤] .

وفي اليوم الرابع الذي أطلق عليه يوم القادسية ، أبلى المسلمون بلاءً عظيماً ووصلت دفعات جديدة من الإمدادات فشاركت في القتال كما شاركت الدفعات السابقة أولاً بأول وامتد القتال إلى الليلة الرابعة فأطلق عليها : ليلة الهرير[*][٢٥٥] . واحتدم القتال إلى ظهر اليوم الخامس (يوم الاثنين) وقاتل أبطال المسلمين قتالاً لم يرَ الراؤون مثله أبداً من أمثال : القعقاع والأشعث بن قيس وقيس بن المكشوح[٢٥٦] وطليحة بن عبد اللّه

---

(٢٥٢) يوم عُماس : سمي بهذا الاسم بسبب شدة القتال بين الطرفين في هذا اليوم الثالث وامتد إلى الليل بعده .

(٢٥٣) ليلة عُماس : بسميت بذلك سبب اشتداد القتال في هذه الليلة .

(٢٥٤) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(*) ليلة الهرير : سميت بهذا لأن المسلمين كانوا يخرجون أصواتاً وهم يقاتلون في هذه الليلة التي احتدم فيهاالقتال ، فكانوا يهرون بأصواتهم بدون كلام حتى أصبح الصباح . وهذه الليلة هي الأخيرة من ليالي القادسية حيث انجلت المعركة عن هزيمة الفرس بعدها في اليوم التالي . أبوالفداء : المختصر في أخبار البشر جـ١ / ١٦١ .

(٢٥٥) الطبري : تاريخ الأمم والملـــوك جـ٤ / ١٣٢ - ١٣٤ . المسعودي : مروج الذهب جـ٢ / ٣٢٧ . أبوالفداء : المختصر في أخبار البشر جـ١ / ١٦١ .

(٢٥٦) قيس بن المكشوح المرادي ، أبو حسَّان ، من أعيان العرب الموصوفين بالشجاعة ، كان ممن أعان على قتل الأسود العنسي أحد المتنبئين في اليمن ، قُلعت عينه يوم اليرموك ، ذو رأي ، قُتل في أواخر خلافة عثمان رضي اللّه عنه .

الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٥ / ٥٢٠ .

الأسدي[٢٥٧]، فتزاحم الفرس منهزمين تجاه نهر العتيق، وسيوف المسلمين تدق أعناقهم، يقول أبو يوسف فيما رواه عمَّن حضر هذه الوقعة: «لقد رأيتنا نمشي على ظهور الرجال نعبر الخندق ما مسهم سلاح، قد قتل بعضهم بعضاً»[٢٥٨].

وفرّ قائدهم رستم فلحقه هلال بن علّفة التيميّ، فقتله في النهر وأخذ سلبه فباعه بسبعين ألفاً[٢٥٩]، كما قَتَل زهرةُ بن الحوية الجالنوس (أحد قادتهم) فأخذ سلبه من أساور وأقراط فأخذها منه سعد ثم أرسل إلى الخليفة يستشيره في أمرها[٢٦٠].

يقول بروكلمان: إن المسلمين سمحوا للفرس أن ينسحبوا آمنين[٢٦١]، ولو كان هذا صحيحاً لما قتل رستم وغيره من قادة الفرس تلك القتلة الشنعاء في نهر العتيق.

وهنا ندرك قيمة الخطة العسكرية التي خطط لها الخليفة الفاروق كي يقاتل سعد في القادسية غرب نهر العتيق فيكون هذا النهر مقبرة للفرس بعد هزيمتهم مدبرين تجاه النهر.

---

(٢٥٧) طليحة بن عبد اللّه الأسدي: قدم على النبي ﷺ في وفد بني أسد فأسلم، ثم ارتد في خلافة الصديق، فحاربه بقيادة خالد بن الوليد فهرب إلى الشام ثم عاد إلى إسلامه في خلافة عمر رضي الله عنه، وحسن إسلامه وشهد فتوح العراق واستشهد في معركة نهاوند سنة ٢١هـ. ابن حجر: الإصابة جـ٢/ ٢٣٤.

(٢٥٨) أبو يوسف: كتاب الخراج/ ٣٠.

(٢٥٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٣٤.

(٢٦٠) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط/ ١٣٢. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٢٧.

(٢٦١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية/ ٩٧.

ثم كتب سعد إلى الخليفة يبشره بالنصر وبما فتح اللّه على المسلمين فقال له: «أما بعد: فإن اللّه نصرنا على أهل فارس ومنحناهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعُدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم اللّه بذلك، بل سلبوه ونقله عنهم إلى المسلمين واتّبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام[٢٦٢] وفي الفجاج[٢٦٣]، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ[٢٦٤] وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلاّ اللّه فإنه بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جنّ الليل كدوي النحل وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود ولا يفضل منهم من بقي إلاّ بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم».[٢٦٥]

إنه وصف دقيق من القائد إلى الخليفة لما جرى للفرس في نهاية القادسية حين تفرقت جموعهم شذراً مذراً على أطراف الأنهار وفي الطرق المختلفة في حالة فوضوية مما يدل على الهزيمة الشنعاء التي لحقت بهم بالرغم من كثرتهم وقلة عدد المسلمين، كما وصف قتال المسلمين وحرصهم على الشهادة وتعبدهم بتلاوة القرآن ليلاً إذا هدأ القتال ، أصواتهم كأنها دوي النحل.

---

(٢٦٢) طفوف الآجام: الطف: ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق.
والآجام: الشجر الكثيف الملتف. المعجم الوسيط جـ٢ / ٥٦٠ .

(٢٦٣) الفجاج: جمع فج وهو الطريق الواسع البعيد. المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٧٤ .

(٢٦٤) سعد بن عبيد القارىء الأنصاري، أبو عمير. شهد بدراً ومعركة الجسر والقادسية، كان إماماً لمسجد قباء في حياة الرسول ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما، كان قارئاً للقرآن، فعرف بسعد القارىء، أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن الكريم على عهد الرسول ﷺ. استشهد في القادسية وهو ابن أربع وستين سنة.
ابن عبدالبر: الاستيعاب جـ٢ / ٦٠٠ . ابن حجر: الإصابة جـ٢ / ٣١ .

(٢٦٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٤ .
انظر ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٤٦ .

وقد جاء في تاريخ الأمم والملوك في رواية عن السري بن يحيى أن الذي حمل هذا الكتاب إلى الخليفة هو سعد بن عميلة الفزاري[(٢٦٦)] فلما اقترب من المدينة لقي الخليفة خارجها وكان يخرج في كل يوم يسأل الركبان عن أخبار القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله فكان الخليفة يسأله ويجري خلفه وهو لا يعرفه فيجيبه: هزم اللّه العدو، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلِّمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: هلا أخبرتني رحمك اللّه أنك أمير المؤمنين وجعل عمر رضي الله عنه يقول: لا عليك يا أخي[(٢٦٧)]، فسلمه البشارة من سعد فقرأها على الناس من فوق المنبر[(٢٦٨)] يقول البلاذري: إن الخليفة حزن لمقتل سعد بن عبيد القارئ فقال: «لقد كان قتله ينغص على هذا الفتح». [(٢٦٩)] وأما مسألة السلب الذي انتزعه سعد بن أبي وقاص من زهرة بن الحوية واستشار عمر فيه، فقد جاء الجواب منه بردها له يقول الخليفة في كتابه لسعد: «أنا أعلم بزهرة منك، وإن زهرة لم يكن ليغيِّب من سلب سلبه فإن كان الذي سعى به إليك كاذباً فلقاه اللّه مثل زهرة في عضديه يارقان، امض له سلبه وفضِّله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة، وإني قد نفلت كل

---

(٢٦٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٣٤، ١٤٤. انظر ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٣٧.

(٢٦٧) الدينوري: الأخبار الطوال / ٩٦.

(٢٦٨) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٤٦.

(٢٦٩) البلاذري: فتوح البلدان / ٢٦٢.

مـن قتـل رجـلاً سلبـه»(*)[270].

وهكذا يعظم عمر أصحابه فلا ينقصهـم من أقدارهم ولا يحرمهـم سلبهم تشجيعاً لهم وترغيباً كما كان يفعل الرسول ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد سأل الناسُ الذين جاؤوا من الشام سعداً أن يسهم لهم فأرسل إلى الخليفة يسأله فأجابه: «أسهم لمن أتاك قبل أن يتفقأ[271] قتلى فارس»[272].
وقد جاء في مجمع الزوائد أن الغنيمة حق لمن شهد الوقعة.[273] وأعتقد أن الخليفة عمر رضي الله عنه استدل على هذا الحكم مما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبان ابن سعيد بن العاص وأصحابه قدموا على الرسول اللّه ﷺ بخيبر بعد أن فتحها اللّه عليه فقال أبَّان: اقسم لنا يا رسول الله. فقال رسول اللّه ﷺ: «اجلس يا أبان» ولم يقسم له رسول اللّه ﷺ.[274]

(*) السلب: ما يأخذه المسلم عن القتيل من المشركين، فقد ورد عن الرسول ﷺ في السلب أنه للقاتل تشجيعاً وترغيباً لأبطال المسلمين لكي يتمكنوا من أعداء الله، ولو أن المسلمين لم يكونوا يقاتلون لأجل ذلك، ولكنهم قاتلوا طمعاً في ثواب الآخرة، وقد منح الرسول ﷺ هذه الأسلاب لعدد من الصحابة في بدر ومؤته وأحد، وسار الصديق رضي اللّه عنه على سيرة الرسول ﷺ فأنفل السلب للقاتل، فقد منح قلنسوة هرمز أحد قادة الفرس لخالد بن الوليد بعد أن قتله.

الهيثمي: مجمع الزوائد جـ٥ / ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢٧٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٣٥ .

انظر ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٣٦ .

(٢٧١) يتفقأ: يدفن .

(٢٧٢) ابن قدامه: المغني جـ٨ / ٤١٩ .

(٢٧٣) الهيثمي: مجمع الزوائد جـ٥ / ٤١٩ .

(٢٧٤) ابن قدامة: المغني جـ٨ / ٤١٩ .

أما الجند الذين كانوا يحرسون النساء في العذيب ولم يشتركوا في القتال فقد أمر الخليفةُ سعداً أن يسهم لهم ؛ لأنهم كانوا يخلفون المحاربين في عيالاتهم.[٢٧٥]

في الطريق إلى المدائن:

أما الجزء الثاني من الخطة العسكرية التي رسمها الخليفة لسعد بن أبي وقاص في محاربة الفرس بعد القادسية حين قال له: «فإن منحك اللّه أدبارهم (أي في القادسية) فلا تنزع عنهم حتى تقحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله».[٢٧٦]

وقد تحقق الجزء الأول من هذه الخطة بهزيمة الفرس في القادسية وأما الشق الثاني فيما يتعلق بمطاردة الفرس واقتحام المدائن عاصمتهم، فإن قائد هذه الحملة لم يكن بالذي يخالف أمر الخليفة بل إنه سار على الخطة بإحكام وكان الخليفة يتابع سيرها أولاً بأول. وقد روى الطبري أن سعداً أقام في القادسية مدةً بعد هزيمة الفرس للوجع الذي كان به[٢٧٧]، وأعطى تعليماته لنائبه الذي عينه بدلاً من خالد بن عُرفطة، وهو هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص[٢٧٨] أن يلحق بالفرس شرق نهر الفرات على الطريق المؤدي إلى المدائن وجعل خالداً على الساقة، وزهرة بن الحوية على المقدِّمات.[٢٧٩]

---

(٢٧٥) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٥٣ .

(٢٧٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٩٠ .

(٢٧٧) نفس المصدر جـ٤ / ١٤١ .

(٢٧٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٥ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٥٣ .

(٢٧٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤١ . انظر الدينوري : الأخبار الطوال / ٩٦ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٤١ .

وأما رواية الطبري فيما ذكره أن عمر كتب إلى سعد بعد القادسية «أن قف ولا تطلبوا غير ذلك» فكتب إليه سعد «إنما هي سربة أدركناها والأرض بين أيدينا» فكتب إليه عمر «أن قف مكانك ولا تتبعهم واتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحرا»[٢٨٠] «ارتاد سعد مكاناً بنى فيه الكوفة بعد ذلك، ومضمون هذه الرواية يدل على أن هذه المراسلة حصلت بعد دخول نهر دجلة إلى المدائن، ولا يعقل أن يوقف الخليفة هذا الفتح حتى يبنى للمسلمين دار هجرة لأن ذلك سيأخذ وقتاً، ما زال المسلمون بحاجته لمطاردة الفرس بعد القادسية، كما أن سياق الأحداث ووقائعها وما جرى من مراسلات بين الخليفة وسعد بشأن سواد العراق ومطاردة الفرس على نفس الطريق الذي جاء منه رستم من المدائن إلى القادسية كل ذلك يشير إلى أن الحملة واصلت سيرها وراء الفرس قبل ارتياد الكوفة كما سيأتي معنا لاحقاً حول الفصل الأخير من الخطة التي نفذها سعد أثناء حملته، يضاف إلى ذلك أن خطة الخليفة كما جاءت سابقاً أن يقتحم سعد عاصمة الفرس المدائن بعد هزيمتهم في القادسية وقد نفذ سعد ذلك.[٢٨١]

تقدّم زهرة بن الحوية قائد المقدّمات إلى «بُرْس»، فتصدى له صاحبها بصبهري بمن معه من فلول الفرس فهزمهم زهرة ودخل «بُرْس» بعد مقتل بصبهري فانسحب باقي الفرس إلى بابل بقيادة الفيرزان فلحقهم زهرة بن

---

(٢٨٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤١ .

(٢٨١) انظر كتاب الخليفة عمر لسعد ص ٤٣٤ .

الحوية بمن معه فاستولى على بابل وهرب الفيرزان إلى الأهواز(٢٨٢) ثم نهاوند(٢٨٣) بعد ذلك.(٢٨٤)

تقدم زهرة بن الحوية بعد بابل إلى كوثي فأخذها وقتل صاحبها شهريار فأقام بها أياماً، على حين كانت فلول الفرس تتجه إلى المدائن بقيادة مهران(٢٨٥) ثم لحق سعد بزهرة بن الحوية وهو مقيم بكوثي.(٢٨٦)

واصل زهرة بن الحوية طريقه إلى بَهُرَسير(٢٨٧) وسعد وراءَه فتلقاهم في الطريق صاحب ساباط بالصلح وقبول الجزية، فأمضاه سعد بن أبي وقاص، وواصل المسلمون طريقهم إلى بَهُرَسير فبدؤوا بمحاصرتها في شهر ذي الحجة سنة ١٥هـ.(٢٨٨)

---

(٢٨٢) الأهواز: يطلق عليها بالفارسية خوزستان، ويغلب عليها سوق الأهواز وهي بين البصرة وفارس، غرب نهر دجلة، فتحت سنة ١٦هـ على يد حرقوص التميمي بتوجيه من سعد بن أبي وقاص.

ياقوت: معجم البلدان جـ١ / ٣٣٨ - ٣٤١.

(٢٨٣) نهاوند: مدينة عظيمة جنوب همذان، بينهما ثلاثة أيام (أربعة عشر فرسخاً). انتصر فيها المسلمون على الفرس وفتحت لهم فأطلق على هذه الوقعة فتح الفتوح بقيادة النعمان بن مقرّن المزني في خلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه سنة ١٩هـ. ياقوت: معجم البلدان جـ٥ / ٣٦١ - ٣٦٣.

(٢٨٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط / ١٣٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٥ - ١٦٧. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٥٣.

(٢٨٥) ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٥٣.

(٢٨٦) نفس المصدر جـ٢ / ٣٥٣.

(٢٨٧) بَهُرَسير: مدينة على الحافة الغربية لنهر دجلة مقابل المدائن وقد وردت عند أبي الفداء نَهُرسير. ياقوت: معجم البلدان جـ١ / ٦١٠.

أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر جـ١ / ١٦١.

(٢٨٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٨.

ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٥٣ - ٣٥٤.

وقد استمر الحصار شهرين ثم استسلمت بعدها للمسلمين وذلك في شهر صفر سنة ١٦هـ[٢٨٩]، وقد ذكر البلاذري حصارها فقال : إنه استمر أشهراً ، ثم دخلها سعد بعد ذلك[٢٩٠] .

وقد قبض زهرة على صاحبها شهريار فقتله وهرب كثير من أهلها إلى المدائن[٢٩١] ، يقول الدينوري : إن سعداً أقام ببهرسير ثمانيةً وعشرين شهراً أو تسعة أشهر قبل دخوله المدائن[٢٩٢] وجاء في فتوح البلدان أنه أقام ثمانية عشر شهراً أو تسعة أشهر .[٢٩٣] وإنني أميل إلى الرواية التي حددت هذه المدة بتسعة أشهر ، إذ لا يعقل أن ينتظر سعد تلك المدة الطويلة أمام المدائن دون أن يقتحمها كما أن الأشهر التسعة كافية لترتيب أوضاع السواد بعد المراسلات التي جرت بين الخليفة وسعد كما سيأتي معنا لاحقاً .

وقد أخبر سعد الخليفة بأخبار الفتوحات في أرض السواد وما فعله مع أهل الذمة وسأله عما يفعله بأرض العراق والغنائم فأجابه : «أما بعد : فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء اللّه

---

(٢٨٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٩ .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٦١ - ٦٣ .

(٢٩٠) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦١ .

(٢٩١) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٥٦ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٦٣ .

(٢٩٢) الدينوري : الأخبار الطوال / ٩٨ .

(٢٩٣) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٢ .

عليهم، فإذا جاءك كتابي هذا فانظر ما أجلب[(٢٩٤)] الناس عليك إلى العسكر من كراعٍ[(٢٩٥)] أو مال فاقسمه بين من حضر[(٢٩٦)] من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات[(٢٩٧)] المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر، لم يكن لمن بقي بعدهم شيء، وقد كنت أمرتك أن تدعو الناس ثلاثةَ أيام، فمن استجاب لك وأسلم قبل القتال، فهو رجل من المسلمين، له مالهم، وله سهم في الإسلام، ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين، وماله لأهل الإسلام، فإنه قد أحرزوه قبل إسلامه، فهذا أمري وعهدي إليك، ولا عشور[(٢٩٨)] على مسلم، ولا على صاحب ذمة إذا أدى المسلم زكاة ماله وأدى صاحب الذمة جزيته التي صالح عليها، إنما العشور على أهل الحرب إذا استأذنوا أن يتجروا في أرضنا فأولئك عليهم العشور. [(٢٩٩)]

---

(٢٩٤) أجلب : ما جمعه المسلمون وساقوه من معسكر العدو إلى موضع آخر.

المعجم الوسيط، جـ١/ ١٢٨ .

(٢٩٥) كراع : اسم يجمع الخيل والسلاح.

المعجم الوسيط، جـ٢/ ٧٨٣ .

(٢٩٦) حضر : قاتل العدو فعلاً، وحضر وقائع المعركة.

انظر مادة (حضر): المعجم الوسيط جـ١ / ١٨٠ .

(٢٩٧) أعطيات : أرزاق الجند وما يخصص لهم من مال. المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٠٩ .

(٢٩٨) عشور : ما يؤخذ من تجار العدو عن تجارتهم إذا تاجروا في بلاد المسلمين ومقداره عُشر أموالهم وهذا هو المفهوم من العشر في هذا النص. ويكون العشر أيضاً على الأرض التي أحياها المسلمون أو التي أسلم عليها أهلها.

أبو يوسف : كتاب الخراج / ١٢١ . انظر المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٠٢ .

(٢٩٩) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج / ٤٨.

ومن هنا بدأت المراسلات بين الخليفة وسعد بن أبي وقاص تأخذ شكلاً جديداً بشأن البلاد المفتوحة ما بين نهري دجلة والفرات فيما يدعى بأرض السواد قبل مواصلة الفتح إلى المدائن وسائر بلاد فارس. ونلاحظ في هذا الكتاب الذي أرسله الخليفة إلى سعد، أنه لم تأخذه نشوة الانتصار بل بدأ بمعالجة شؤون القرى والأراضي وفلاحيها بما يتناسب مع مصلحة الفتوحات الإسلامية دون الإضرار بمصالح أصحاب الأراضي من أهل الذمة مع التمسك بالعهود والمواثيق التي أبرمها سعد بن أبي وقاص معهم، كما نلاحظ أن سعداً لم يتصرف في شيء قبل الرجوع إلى الخليفة وهذا ما لاحظناه في جميع المراسلات السابقة واستمر عليه حتى آخر الحملة.

وقد بين كتاب الخليفة أن الغنيمة حق لمن حضر الوقعة فعلاً كما أمره أن يترك الأرض بيد أصحابها يزرعونها ويؤدون ما عليها من خراج لبيت مال المسلمين، وأن من أسلم قبل الحرب فله من الغنائم مثل ما للمسلمين وأن تبقي أموالهم لهم، أما الذين دخلوا الإسلام بعد الحرب فأموالهم غنيمة للمسلمين ولهم بعد ذلك ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات.

وقد جاء في المصادر المختلفة[300] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاور أصحابه رضي اللَّه عنهم في أرض العراق، فرأى بعضهم قسمتها ورأى البعض الآخر بقاءَها بيد أهلها، فأخذ عمر بهذا الرأي فأقرها بيد أهلها ووضع عليها

(٣٠٠) أبو يوسف: كتاب الخراج / ٣٥. يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج / ٤٤. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ ٢ / ١٥١ - ١٥٢.

الخراج[٣٠١] وفرض الجزية[٣٠٢] على الرؤوس وكان هذا في صالح المسلمين كي يتفرغوا للجهاد ومواصلة الفتوحات الإسلامية وفي صالح أهل السواد إذ لم تنزع أرضهم منهم بل بقيت لهم يفلحونها ويزرعونها ويؤدون عنها خراجاً لبيت مال المسلمين[٣٠٣].

وأما تجار المشركين الذين يتاجرون في أرض المسلمين فقد فرض الخليفة عليهم العشر كما جاء في الكتاب السابق ولا يدفعها الذمي[٣٠٤] أو المسلم إذا أدى المسلم زكاة ماله وأدى الذمي خراج أرضه والجزية عن نفسه، ويتفق هذا مع ما جاء عن أبي موسى الأشعري أنه كتب إلى الخليفة عمر، أن المحاربين يأخذون من تجار المسلمين العشر إذا تاجروا في بلادهم، فكتب إليه عمر: «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف

---

(٣٠١) الخراج: الخَرْج: ما تخرجه الأرض من غلّة، والخراج: ما يؤخذ من الأرض التي يفتتحها المسلمون عنوة، ويوظف عليها أهلها من أهل الذمة لزراعتها وإصلاحها.

أبو يوسف: كتاب الخراج / ٦٠. الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٤٦.

انظر المعجم الوسيط جـ١ / ٢٢٤.

(٣٠٢) الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة عن رقابهم من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والسامرة ماعدا نصارى بني تغلب وأهل نجران.

أبو يوسف: كتاب الخراج / ١٢٢. الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٤٢.

(٣٠٣) أبو يوسف: كتاب الخراج / ٢٨، ٣٥، ٦٢ - ٦٣.

الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٤٦ - ١٤٨، ١٧٤ وما بعدها.

يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج / ٤٤، ٤٨.

اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٥١ - ١٥٢.

(٣٠٤) الذمي: الذمة: العهد، والكفالة، والأمان، وأهل الذمة: هم المعاهدون من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم. انظر المعجم الوسيط جـ١ / ٣١٥.

العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه»[٣٠٥] وهذا يدل على أن العشر من تجار أهل الحرب من باب المعاملة بالمثل، أما ربع العشر من المسلم فهو بمثابة الزكاة، وأما الذمي الذي يدفع نصف العشر فهو ليس عشوراً ولكنه وضع بين المسلم وبين المحارب. يقول أبو يوسف: «وكل ما أُخذ من المسلمين من العشور فسبيله سبيل الصدقة، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً وأهل الحرب سبيل الخراج[٣٠٦]». وفي رواية أخرى له عن زياد ابن جرير (جدير) يقول أبو يوسف: «أول من بعثَ عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه على العشور أنا، قال فأمرني أن لا أفتش أحداً وما مرّ عليَّ من شيء أخذتُ من حساب أربعين درهماً درهماً واحداً من المسلمين ومن أهل الذمة من كل عشرين واحداً، وممن لاذمة له العشر»[٣٠٧].

وفي إحدى روايات يحيى القرشي عن زياد بن جرير قال: «كتبتُ إلى عمر رضي الله عنه في أُناس من أهل الحرب يدخلون أرضنا أرض الإسلام فيقيمون؟ قال فكتبَ إليَّ عمر: إن أقاموا ستة أشهر فخذ منهم العشر وإن أقاموا سنةً فخذ منهم نصف العشر[٣٠٨]» مما يدل على أن الخليفة أمر أن يعاملوا إذا امتدت إقامتهم إلى سنة معاملةَ أهل الذمة.

---

(٣٠٥) أبو يوسف: كتاب الخراج/ ١٣٥. يحيى القرشي: كتاب الخراج/ ١٧٣. ابن قدامة: المغني جـ٨/ ٥١٨ - ٥١٩.

(٣٠٦) أبو يوسف: كتاب الخراج/ ١٣٥.
السرخسي: شرح السير الكبير جـ٥/ ٢١٣٦.

(٣٠٧) أبو يوسف: كتاب الخراج/ ١٣٥.
السرخسي: شرح السير الكبير جـ٥/ ٢١٣٥.

(٣٠٨) يحيى القرشي: كتاب الخراج/ ١٧٢.

كما أرسل الخليفة عمر إلى أنس بن مالك[٣٠٩] وكان في موقع آخر أن يأخذ من التجار كما فعل مع زياد بن جرير[٣١٠]، وقد ذكرت المصادر التاريخية أن أهل منبج[٣١١] قوم من أهل الحرب وراء البحر[٣١٢] كتبوا إلى عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنه : «دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشِّرنا» . فشاور عمر أصحابه فأشاروا فيه فكانوا أول من عشَّر من أهل الحرب.[٣١٣] وفيما يتعلق بأرض العراق فإن الخليفة عمر أرسل عثمان بن حنيف[٣١٤] ليمسح

---

(٣٠٩) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. الإمام المفتي المقرىء المحدّث، راوية الإسلام، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي المدني، خادم رسول اللّهﷺ، وقرابته من النساء وتلميذه وتبعه، آخر الصحابة وفاةً، قدم على الرسول ﷺ وهو ابن عشر، غزا مع الرسول › وبايعه تحت الشجرة، شهد فتح تستر في خلافة عمر رضي الله عنه. توفي سنة ٩١هـ وقيل ٩٢هـ أو ٩٣هـ. الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٣/ ٣٩٥ - ٤٠٦ .

(٣١٠) أبو يوسف : كتاب الخراج / ١٣٢ - ١٣٤ .

السرخسي : شرح السيرالكبير جـ٥ / ٢١٣٣ - ٢١٣٦ .

ابن قدامة : المغني. جـ٨/ ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٣١١) منبج : بلدة في شمال الشام، بينها وبين نهر الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. ياقوت : معجم البلدان جـ٥ / ٢٣٧ - ٢٣٩ .

(٣١٢) وراء البحر : من وراء نهر الفرات.

(٣١٣) أبو يوسف : كتاب الخراج / ١٣٥ . السرخسي : شرح السير الكبير جـ٥ / ٢١٣٣ . ابن قدامة : المغني جـ٨/ ٥٢٠ -٥٢١ .

(٣١٤) عثمان بن حُنيف بن واهب بن عُكيم بن ثعلبة بن الحارث بن عوف الأوسي الأنصاري القبائي أخو سهل بن حُنيف، بعثه عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في خلافته على خراج سواد العراق، وأمره أن يمسح السواد. عينه الخليفة علي بعد ذلك على البصرة. توفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ / ٣٢٠ - ٣٢٢ .

أرض السـواد ما دون نهر دجلة وبعث حذيفة بن اليمان[٣١٥] ليمسح مـا وراء نهر دجلـة[٣١٦] وقد ذكر اليعقوبي ذلك فقال : إن عمر بعثهما لمسح السواد دون أن يذكـر مـا وراء نهـر دجلة .[٣١٧] ثم إن الخليفـة كتب إلى عثمـان بن حنيف أن لاـ يمسح تلاً ولا أجمة[٣١٨] ولا سبخة[٣١٩] ولا مستنقع ماء ولا ما لا تبلغه المياه فمسح أرض العراق بالذراع على أساس ذراع عمر بن الخطاب ذراعاً وقبضةً وإبهاماً قائمة[٣٢٠] ، وكتب إلى الخليفة : «إني وجدتُ كل شيء بلغه الماء من عامرٍ[٣٢١] أو غامر[٣٢٢] ستةً وثلاثـين ألف ألف جريب(*)[٣٢٣]

---

(٣١٥) حذيفة بن اليمان بن حسْل ، أبو عبدالله بن جابر العبسي اليماني ، من أعيان المهاجرين ، حليف الأنصار ، شهدَ أحداً هو وأبوه ، ولي المدائن في خلافة عمر وبقي عليها إلى ما بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بأربعين ليلة سنة ٣٦هـ . الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ / ٣٦١ - ٣٦٩ .

(٣١٦) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٣٦- ٣٧ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٩ . الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٤٨ ، ١٧٤ .

(٣١٧) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٥٢ .

(٣١٨) أجمة : الشجر الكثيف الملتف . المعجم الوسيط جـ١ / ٧ .

(٣١٩) سبخة : أرض ذات ملح لاتكاد تنبت . المعجم الوسيط جـ١ / ٤١٣ .

(٣٢٠) الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٥٣ ، ١٧٥ .

(٣٢١) عامر : الأرض العامرة التي تزرع بالفعل . خلاف غامر . المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٦١ .

(٣٢٢) غامر : خلاف العامر ، وهو ما غمرته المياه أو الرمل وصار لا يصلح للزراعة . المعجم الوسيط جـ٢ / ٦٦١ .

(*) جريب : نوع من المساحة ويساوي ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مربع بالذراع العمري ، نسبة إلى ذراع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو أيضاً مكيال مقداره أربعة أقفزة ، ومـقـدار القـفـيـز ثمـانيـة أرطال . الماوردي : الأحكام السلطانيـة / ١٤٨ ، ١٥٤ . انظر المعجم الوسيط جـ١ / ١١٤ .

(٣٢٣) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٨ . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٥٢ . الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٧٣ - ١٧٥ .

فكتب إليه عمر بأن يفرض عليهم الخراج على كل جريب عامر أو غامر بلغه الماء، عمله صاحبه أولم يعمله درهماً[٣٢٤] وقفيزاً[٣٢٥] وأنً يفرضً على الكروم على كل جريب عشرة دراهم وعلى الرطاب[٣٢٦] خمسة دراهم وأن يطعمهم النخل والشجر كله.[٣٢٧].

وفي رواية للشعبي، أن عمر بن الخطاب فرض على الكروم عشرة دراهم، وعلى الرطبة خمسةً، وعلى كل أرض يبلغها الماء عملت أولم تعمل درهماً ومختوماً (صاعاً)[٣٢٨] وعلى ما سقت السماء من النخل العشر وعلى ما سقى بالدلو نصف العشر، وما كان من نخل عملت أرضه ليس عليه شيء.[٣٢٩]

---

(٣٢٤) درهماً: عملة معدنية للتداول كانت موجودة قبل الإسلام، واستقر التعامل بها بعد الإسلام على أن وزنه ستة دوانيق، ووزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وهذا ما اتفق عليه في عهد عمر رضي اللّه عنه، وأول من ضرب الدراهم الإسلامية هو عبد الملك بن مروان.

الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٥٤ .

(٣٢٥) قفيزاً: وزنه ثمانية أرطال وثمنه ثلاثة دراهم بوزن المثقال، ومن الأرض مقداره مائة وأربعة وأربعون ذراعاً.

الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٤٨ . انظر المعجم الوسيط جـ٢ / ٧٥١ .

(٣٢٦) الرطاب: ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يصير تمراً، واحدتها رطبة والجمع رطاب وأرطاب. انظر المعجم الوسيط جـ١ / ٣٥١ .

(٣٢٧) البلاذري: فتوح البلدان / ٢٦٨ . اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٥٢ . الماوردي: الأحكام السلطانية / ١٧٥ .

(٣٢٨) الصاع: مكيال قدره خمسة أرطال وثلث والخمسة أوسق ثلاثمائة صاع، والوسق مقداره ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ. أبو يوسف: كتاب الخراج / ٥٣ .

(٣٢٩) أبو يوسف: كتاب الخراج / ٣٧ - ٣٨ . يحيى القرشي: كتاب الخراج / ٢٣ .

وفي موضع آخر ذكر أبو يوسف أن عثمان بن حنيف جعل على كل جريب من العنب عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى الرأس اثني عشر درهماً وأربعة وعشرين درهماً وثمانية وأربعين درهماً ، وعطل من ذلك النساء والصبيان[٣٣٠]

وقد عبّر عمر عن ذلك : بأنه قوة لهم على عمارات بلادهم وتشجيعاً لهم على فلاحة الأرض[٣٣١] ، وقد رفع عنهم الرق[٣٣٢] بالخراج[٣٣٣] الذي وضعه على رقابهم، ومقداره ثمانية وأربعون درهماً على الموسر ، وعلى متوسط الحال أربعة وعشرون درهماً ، وعلى من لم يجد شيئاً اثنا عشر درهماً، وجعلهم أُكَرة[٣٣٤] في الأرض.[٣٣٥]

جاء في الماوردي أنه حُمِل من خراج سواد الكوفة في أول سنة ثمانون ألف ألف درهم ، ثم حمل من قابل عشرون ومائة ألف ألف درهم، وتتالت الزيادة بعد ذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان

---

(٣٣٠) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٣٦ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٩ - ٢٧٠ . الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٤٨ ، ١٧٥ .

(٣٣١) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٨ . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ٢ / ١٥٢ . الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٧٥ .

(٣٣٢) الرق : العبودية . انظر مادة (رقَق). المعجم الوسيط جـ١ / ٣٦٥ .

(٣٣٣) الخراج : المقصود به هنا الجزية التي تؤخذ عن الرؤوس .

(٣٣٤) أكرةً : أجراء يحرثون ويزرعون على نصيب معلوم مما يزرع فهي مؤاكرة أي مزارعة . المعجم الوسيط جـ١ / ٢٢ .

(٣٣٥) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٣٦ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٩ - ٢٧٠ . الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٤٨ ، ١٧٥ .

وعمر بن عبد العزيز.[336]

ثم إن عثمان بن حنيف أتاه الدهاقين[337] فقالوا : ما كان يقرب من المصر يباع العنقود منه بدرهم وما كان بعيداً عن المصر فالوسق[338] منه بدرهم، فكتب عثمان بن حنيف إلى الخليفة يسأله عن ذلك فأجابه، أن يحمل من هذا ويضع على هذا بقدر السعرين والموضعين مراعاة لهم.[339]

وقد جرى ما سبق ذكره على أرض السواد ماعدا أرض من قتل في الحرب وأرض من هرب وأرض كسرى وأهل بيته وكل مغيض ماء أو دير بريد وكل صافية اصطفاها كسرى وقد بلغت صوافيه سبعة آلاف ألف درهم فكان عمر يقطعها لمن يشاء، وظل على هذا حتى معركة دير الجماجم[340] فأحرق الديوان[341] فذهب الأصل ولم يعرف بعد، وحاز كل من ناحيته.[342]

---

(٣٣٦) البلاذري : فتوح البلدان / ٢٧٠ . الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٧٥ .

(٣٣٧) الدهاقين : جمع دِهقان وهو رئيس القرية أو رئيس الإقليم. المعجم الوسيط جـ١ / ٣٠٠ .

(٣٣٨) الوسق : مكيلة معلومة مقدارها ستون صاعاً بصاع النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والصاع خمسة أرطال وثلث، والخمسة أوسق ثلاثمائة صاع.

أبو يوسف : كتاب الخراج / ٥٣ .

(٣٣٩) الماوردي : الأحكام السلطانية / ١٤٨ وما بعدها.

(٣٤٠) دير الجماجم : موضع بظاهر الكوفة على بعد سبعة فراسخ منها على طريق البصرة. وقعت في هذا الموضع معركة دير الجماجم بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبدالرحمن ابن الأشعث فلحقت الهزيمة بابن الأشعث. الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٦ / ٣٦٠ - ٣٦١. ٣٦٤-٣٦٥. ياقوت : معجم البلدان جـ٢ / ٥٧٢ .

(٣٤١) الديوان : الدفتر أو السجل، يكتب به أسماء الجيش وأهل العطاء، والجمع دواوين وأول من أسسها . الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه سنة ٢١هـ. انظر المعجم الوسيط جـ١ / ٣٠٥ .

(٣٤٢) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٥٧ - ٥٨ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٧٣ ٢٧٢ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٨٣ .

وقد جرت مراسلات بين الخليفة عمر وسعد بن أبي وقاص عندما كان مقيماً ببهرسير غرب نهر دجلة قبل اقتحام المدائن تتعلق بأرض الذمة الذين ظلوا على أرضهم في السواد وبعهود الصلح التي أبرمها لهم خالد بن الوليد سابقاً [٣٤٣] فقد كتب سعد إلى الخليفة بذلك فقال له: «إنا وردنا بَهُرَسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير فلم يأتنا أحد لقتال فبثث الفلاحين بين القرى والآجام فما رأيك.»[٣٤٤]

فردّ عليه الخليفة: «إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين ممن[٣٤٥] لم يعينوا عليكم فهو أمانهم، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به». [٣٤٦]

ويفهم من هذا الكتاب أن الخليفة نبه سعداً بأن يميز في معاملته بين الذين التزموا بالعهد فلم يعينوا الفرس على المسلمين ولم يرحلوا معهم فهؤلاء ينبغي الوفاء لهم، أما من هرب وقبض عليه فترك الخليفة لسعد حرية التصرف معه كما يراه مناسباً.

وقد بين أبو يوسف في كتاب الخراج أمر أهل الصلح في العراق فقال: «قال بعض الفقهاء: إن أهل العهد هم أهل الحيرة وأهل عين التمر[٣٤٧] وأهل أُلَّيس وبانقْيا[٣٤٨]، فأما أهل بانقيا فإنهم دلّوا جريراً (ابن عبد اللّه البجلي)

(٣٤٣) انظر ص ٤٠١ من هذا البحث.

(٣٤٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٨ .

(٣٤٥) ممَّنْ: زيادة عند ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٣٤٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٨ .

(٣٤٧) عين التمر: بلدة قرب الأنبار غربي الكوفة، كثيرة التمور فسميت لذلك. ياقوت: معجم البلدان جـ٤ / ١٩٩ .

(٣٤٨) بانِقيا: ناحية من نواحي الكوفة. ياقوت: معجم البلدان جـ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

على مخاضة[٣٤٩]، وأما أهل أليس فإنهم أنزلوا أبا عبيدة (ابن مسعود الثقفي) ودلوه على شيء من غرة العدو، وأهل الحيرة صالحهم خالد بن الوليد، وصالح أهل عين التمر وأهل أليس»[٣٥٠].

قد أطلق سعد بن أبي وقاص سراح الفلاحين في أرض السواد ودعا الدهاقين إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة، فقال ابن الأثير: «فلم يبق غربي دجلة إلى أرض العرب سوادي إلاّ آمن واغتبط بملك الإسلام»[٣٥١].

وقال ابن كثير: إنهم أبوا إلاّ الجزية ولم يبق غربي دجلة إلى أرض العرب إلاّ تحت الجزية والخراج[٣٥٢]. وهذا هو الصحيح إذ إن ما جرى من مراسلات بين الخليفة وسعد يدل على ذلك، أما قول ابن الأثير فينطبق على أهل السواد في العصور التالية وليس في عهد الخليفة عمر أثناء الفتح الإسلامي لبلاد العراق وفارس.

ثم أرسل سعد إلى الخليفة بشأن أهل الصلح فقال له: «إن أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف به أحد علمناه إلاّ أهل بانقيا وبسما وأليس الآخرة، وادعى أهلَ السواد أن فارس أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا[٣٥٣] إلينا ولم

---

(٣٤٩) مخاضة: مكان في النهر عمقه بسيط باتساع عرض النهر فيمكن الاجتياز منها بسهولة.

(٣٥٠) أبو يوسف: كتاب الخراج / ٢٨. يحيى القرشي: كتاب الخراج / ٥٢.

(٣٥١) ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٥٥.

(٣٥٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٦٣.

(٣٥٣) يخالفوا: يغدروا، يجيئونا من الخلف غدراً. المعجم الوسيط جـ١ / ٢٥١.

يذهبـوا في الأرض[*][٣٥٤].

ويوضح هذا الكتاب أن أهل السواد أُكرهوا من الفرس لمحاربة المسلمين إلاّ أنهم لـم يغـدروا ولـم يرحلوا عن أرضـهم، وقـد جـاء في كتـاب الخراج ليحيى القرشي: أنه لـم يكن بين المسلمين وأهل السواد عهد سوى أهل بانقيا وبسما وأليس الآخرة والحيرة، وأما باقي أهل السواد فقد قبلوا بالخراج الذي أمضاه الخليفة عمر فصار عهداً لهم[٣٥٥].

وقد ردّ الخليفة على كتاب سعد فقال له: «أما بعد: فإن اللَّه جلّ وعلا أنزل في كل شيء رخصة[٣٥٦]، في بعض الحالات إلاّ في أمرين: العدل في السيرة والذكر[٣٥٧]، فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلاّ بالكثير، وأما العدل فلا رخصةَ فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا في رخاء، والعدل وإن رُئيَ لينا فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رُئيَ شديداً فهو أنكش[٣٥٨] للكفر، فمن تمَّ على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية، وأما مَنْ ادّعى أنه استكره، فمن لم يخالفهم إليكم[٣٥٩] أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من

(*) ولم يذهبوا في الأرض: ذهب بمعنى مضى، أي أنهم لم يتركوا أرضهم ولم ينضموا إلى الفرس بعدما انسحبوا إلى شرق نهر دجلة.
المعجم الوسيط جـ١ / ٣١٦.

(٣٥٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٥.

(٣٥٥) يحيى القرشي: كتاب الخراج / ٤٩. انظر البلاذري: فتوح البلدان / ٢٦٦.

(٣٥٦) رخصة: رخَّصه: سهّله ويسره. المعجم الوسيط جـ١ / ٣٣٦.

(٣٥٧) الذكر: الدعاء للَّه والصلاة إليه. المعجم الوسيط جـ١ / ٣١٣.

(٣٥٨) أنكش للكفر: يفنيه ويقضي عليه. المعجم الوسيط جـ٢ / ٩٥٢.

(٣٥٩) يخالفهم إليكم: أتوكم من الخلف إذا غدروا. المعجم الوسيط جـ١ / ٢٥١.

ذلك إلاّ أن تشاؤوا وإن لم تشاؤوا فانبذ[٣٦٠] إليهم وأبلغوهم مأمنهم»[*][٣٦١].

وفي إحدى روايات الطبري أنّ سعداً أرسل إلى الخليفة يسأله عن أهل العهد في أرض السواد فجاء في كتابه إليه: «إن أهل السواد جلوا[٣٦٢] فجاءَنا من أمسك بعهده[٣٦٣] ولم يجلب[٣٦٤] علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم، وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فأحدث إلينا[٣٦٥] فيمن تمّ[٣٦٦] وفيمن ادّعى أنه استُكره[٣٦٧] وحُشِرَ[٣٦٨] فهرب فإنا بأرض رغيبة[٣٦٩] والأرض خلاء من أهلها[٣٧٠] وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا[٣٧١] وإن أعمرَ

---

(٣٦٠) انبذ إليهم: نبذ: نقض العهد. نابذه الحرب: جاهره بها. المعجم الوسيط جـ٢ / ٨٩٦.

(*) أبلغوهم مأمنهم: اتركوا لهم المجال أن يصلوا إلى أرض الحرب بأمان.

(٣٦١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٥.

(٣٦٢) جلوا: رحلوا عن أوطانهم نتيجة الخوف. تنحوا عن أرض السواد، المعجم الوسيط جـ١ / ١٣٢.

(٣٦٣) أمسك بعهده: اعتصم وتعلق به. المعجم الوسيط جـ٢ / ٨٦٩.

(٣٦٤) لم يجلب علينا: لم يتواعدوا لنا بشرٍّ ولم يجمعوا الجموع علينا. المعجم الوسيط جـ١ / ١٢٨.

(٣٦٥) أحدث إلينا: بيِّن لنا.

(٣٦٦) فيمن تمَّ: الذي استمر على عهده.

(٣٦٧) استُكره: الذي أجبره العدو على نقض العهد.

(٣٦٨) حُشِرَ: انضم إلى الفرس بالإكراه. المعجم الوسيط جـ١ / ١٧٥.

(٣٦٩) رغيبة: واسعة. انظر الهامش رقم ١٤٠.

(٣٧٠) خلاء من أهلها: خالية من أصحابها بعد رحيلهم عنها.

(٣٧١) أهل صلحنا: الذين صالحوا المسلمين من أهل السواد. انظر الهامش رقم ١٤.

لها وأوهنَ لعدونا تألّفهم»(*)[٣٧٢].

فرد الخليفة على كتاب سعد : «أما من أقام ولم يجلُ وليس له عهد فله ما لأهل العهد بمقامهم لكم، وكفهم عنكم إجابة، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك، وكل من ادّعى ذلك فصدق فله الذمة وإن كذبوا نُبذَ إليهم، وأما ما أعان عليكم وجلا فذلك أمر جعله اللّه لكم، فإن شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية، فإن كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء اللّه عليكم منهم»[٣٧٣].

وقد أوضحت الروايات أن سعد بن أبي وقاص عرض على أهل السواد ممن تنحوا عن أرضهم أن يرجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية وعلى أرضهم الخراج مثلهم مثل أهل العهد فقبل بعضهم العرض وعادوا إلاّ أن هؤلاء كانوا أكثر خراجاً من الذين ثبتوا على الأرض ولم يلتحقوا بالفرس[٣٧٤] إلاّ أن الجزية كانت متساوية ثمانية وأربعون درهماً على الأغنياء، وأربعة وعشرون على متوسطي الحال، واثنا عشر على الفقراء وليس على النساء والصبيان شيء ومن عجز عن ذلك خُفِّفَ عنه[٣٧٥].

(*) تألفهم : استمالتهم للمسلمين للالتئام والاجتماع. المعجم الوسيط جـ١ / ٢٤ .

(٣٧٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٥ .

(٣٧٣) نفس المصدر جـ٤ / ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣٧٤) المصدر نفسه جـ٤ / ١٤٦ . انظر : أبو يوسف : كتاب الخراج / ١٢٢ وما بعدها . يحيى القرشي : كتاب الخراج / ٢٣ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣٧٥) أبو يوسف : كتاب الخراج / ١٢٢ . يحيى القرشي : كتاب الخراج / ٢٣ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٦٧ - ٢٦٨ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤٦ .

فتح المدائن :

أما الجزء الآخر من الخطة التي رسمها الخليفة عمر لسعد بأن يقتحم المدائن بعد القادسية فقد حان ميعادها بعد ترتيب أرض السواد واستقرار أمر المسلمين فيها، فقد عبأ سعد جيشه وخطب فيهم يحثهم على اقتحام نهر دجلة وراء الفرس فقالوا جميعاً: «عزم اللّه لنا ولك على الرشد فافعل»(٣٧٦).

وقد ذكرت المصادر المختلفة أن سعداً قدّم أمامه زهرة بن الحوية وسار هو خلفه، وقد اختلفت هذه المصادر والروايات حول السنة التي دخل المسلمون فيها المدائن، فذكر خليفة بن خياط أن فتحها تم سنة ١٥هـ(٣٧٧)، وهذا لاينسجم مع خروج الحملة من المدينة المنورة في شهر شعبان سنة ١٤هـ كما ورد سابقاً ثم مواصلة سير الحملة إلى القادسية وماجرى فيها وما حصل بعد ذلك في أرض السواد وحصار بهرسير إلى فتح المدائن. على حين ذكر آخرون أنها فتحت سنة ١٦هـ(٣٧٨). وهذا أقرب إلى الصواب لملاءَمته تسلسل الأحداث. فقد دخلوها دون قتال، واستولوا على ما بها من غنائم عظيمة يصعب حصرها لكثرتها(٣٧٩)، وكان يزدجرد بها فهرب منها قبل دخول

---

(٣٧٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٦٤ .

(٣٧٧) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط / ١٣٣ .

(٣٧٨) البلاذري : فتوح البلدان. في رواية له عن الواقدي / ٢٦٢ - ٢٦٣ .

الطبري : في رواية له عن السري بن يحيى : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٦٨ وما بعدها.

(٣٧٩) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط / ١٣٣ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٧٠ -١٧٩ . أبوالفداء : المختصر في أخبار البشر جـ١ / ١٦١ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٦٤ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٥٦ - ٣٥٨ .

المسلمين إلى حلوان[٣٨٠].

وقد وصف ابن كثير عبور المسلمين لنهر دجلة إلى المدائن، فقال: إن سعداً انتدب الناس لعبور نهر دجلة، فتصدى لهم فرسان فارس فصوّب المسلمون رماحهم إلى عيون خيولهم فانهزموا ودخل المسلمون النهر بكتيبتهم (كتيبة الأهوال)، ثم تبعهم القعقاع بن عمرو في الكتيبة الثانية (الخرساء)، ثم تبعهم سعد ببقية الجيش، فدخلوا المدائن فلم يجدوا بها أحداً وحووا ما بها من كنوز وغنائم لايعلم مقدارها إلاّ اللَّه لكثرتها[٣٨١]، وبعد هزيمتهم في المدائن اجتمع الفرس بجلولاء[٣٨٢] بقيادة أحد زعمائهم (مهران) على حين أقام يزدجرد بحلوان[٣٨٣] يمدهم بالرجال والأموال[٣٨٤].

أرسل سعد بأخبار انتصاراته إلى الخليفة فرد عليه: «أنْ سرّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وعلى ميمنته سعد بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة،

---

(٣٨٠) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٧٠. انظر ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٣٨١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧ / ٦٥ - ٦٦.

(٣٨٢) جلولاء: مدينة في طريق خراسان، تبعد عن خانقين سبعة فراسخ، بها كانت الوقعة بين المسلمين والفرس بعد فتح المدائن، فاستباحها المسلمون فسميت جلولاء الوقيعة لما أوقع المسلمون بأهلها فقتل من الفرس مائة ألف. ياقوت: معجم البلدان جـ٢ / ١٨١.

(٣٨٣) حلوان: آخر سواد العراق مما يلي الجبال وهي مدينة كبيرة، فتحها المسلمون على يد هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حيث سيره إليها عمه سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن سنة ١٦هـ. ياقوت: معجم البلدان جـ٢ / ٣٣٤.

(٣٨٤) الدينوري: الأخبار الطوال / ٩٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٧٩. ابن الأثير: الكامل جـ٢ / ٣٦٢.

واجعل على ساقته عمرو بن مالك الجهني(*)(٣٨٥).

يقول خليفة بن خياط: إن الخليفة أمر سعداً أن يقيم في المدائن وأن يقدِّم إلى الفرس مَنْ يقاتلهم ومما قاله في كتابه له: «أقم بمكانك ووجه إليهم جيشاً فإن اللّه ناصرك ومتم وعده»(٣٨٦). ويبدو أن زهرة بن الحوية كان على مقدمة الجيش الذي تقدم إلى جلولاء بقيادة هاشم بن عتبة إذ جاء في كتاب الكامل أن الجيش الذي رافق زهرة بن الحوية إلى جلولاء بلغ اثني عشر ألفاً من سادات المهاجرين والأنصار ورؤوس العرب(٣٨٧).

أقام زهرة بن الحوية على حصار جلولاء في صفر سنة ١٧هـ خلف خندق، حفره الفرس حولها وملؤه بالحسك، ثم اقتحمه عليهم وقتل منهم ألوفا مؤلفة حتى ملأت جثثهم محيط جلولاء فأطلق عليها جلولاء لذلك وغنم المسلمون منها غنائم عظيمة(٣٨٨).

وقد أشار الطبري في رواية عن السري بن يحيى أن الخليفة كتب إلى سعد: «إن فتح اللّه عليكم جلولاء فسرح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل بحلوان فيكون ردءاً للمسلمين ويحرز اللّه لكم سوادكم»(٣٨٩).

(*) عمرو بن مالك الجهني: هو عمرو بن مرة بن عبس بن مالك الجهني، أحد بني غطفان، يكنى أبا مريم، من الصحابة، شهد أكثر المشاهد. مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ابن عبد البر: الاستيعاب جـ٣/ ١٢٠٠.

(٣٨٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٧٩. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٦٢. ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٦٩.

(٣٨٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط/ ١٣٦.

(٣٨٧) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٦٩.

(٣٨٨) البلاذري: فتوح البلدان/ ٢٦٤. الدينوري: الأخبار الطوال/ ٩٩. الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٧٩. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٣٨٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٨٥.

فأقام هاشم بن عتبة بجلولاء وتقدم القعقاع تجاه حلوان[٣٩٠]. وهنا يبدو لي اتجاه جديد في الخطة العسكرية لحملة سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن، إذ جاءَت توجيهات الخليفة إليه أن يقيم في المدائن، ويوجه القادة الآخرين لمتابعة الفتوحات شرق نهر دجلة في بلاد الفرس فيكون سعد بمثابة القائد العام يراقب العمليات العسكرية ويتابعها من المدائن.

أما يزدجرد فقد هرب نحو الجبال حتى استقر بالري[٣٩١]، وفي طريقه إلى حلوان أدرك القعقاعُ مهرانَ بخانقين فقتله[٣٩٢]. ثم استسلمت حلوان له وقبل أهلها الجزية[٣٩٣] ثم كتب سعد بهذه الفتوحات إلى الخليفة عمر واستأذنه في ملاحقة الفرس فأبى وقال: «لَوَدِدْت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حَسبنا من الريف السواد، إني آثرت المسلمين على الأنفال»[٣٩٤].

هذه هي سياسة التريث والتمهل التي كان يسير عليها الخليفة في فتوحاته فهو لا يريد المطاردة في بلاد بعيدة كي لا يشق على المسلمين مرةً واحدة وحتى تتضح له الأمور على مراحل فلا يؤخذ المسلمون على غِرَّة أو التفاف من الخلف وهذا ما يعرف في وقتنا الحاضر بسياسة الأرض المَحروقة. ولا يزال سعد ينفذ تعليمات الخليفة بإرسال القادة إلى النواحي المختلفة وهو في

---

(٣٩٠) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٧١.

(٣٩١) نفس المصدر جـ٧/ ٧١.

(٣٩٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤/ ١٨٢. ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٦٣.

(٣٩٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٧/ ٧١.

(٣٩٤) ابن الأثير: الكامل جـ٢/ ٣٦٣.

المدائن، فقد أرسل ضرار بن الخطاب إلى ماسبذان[٣٩٥]، فأخذها عنوة[٣٩٦]، وقتل صاحبها ماذين بن الهرمزان[٣٩٧]، يقول ابن الأثير : إن الخليفة عمر هو الذي أمر سعداً أن يوجه ضرار بن الخطاب إلى ماسبذان فقد أرسل له كتاباً بذلك جاء فيه : « ابعث إليهم ضرار بن الخطاب في جند واجعل على مقدمته ابن الهذيل الأسدي ، وعلى مجنبتيه عبد اللّه بن وهب الراسبي والمضارب بن فلان العجلي »[٣٩٨] . وبعد أن تساقطت البلاد شرق نهر دجلة بأيدي قادة المسلمين برزت مشكلة الأراضي وأهل الذمة من جديد ، فأرسل سعد إلى الخليفة يسأله عن ذلك فأجابه : «أن أقر الفلاحين على حالهم إلاّ من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته ، وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبتُ إليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم»[٣٩٩] . فأرسل إليه سعد يسأله عمن لم يكن فلاحاً فأجابه : «أما مَنْ سوى الفلاحين فذاك إليكم ما لم تغنموه ـ يعني تقتسموه ـ ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلاها فهي لكم، فإن دعوتموهم وقبلتم منهم الجزاء ورددتموهم قبل قسمتها فذمة، وإن لم تدعوهم ففيء لكم لمن أفاء اللّه ذلك عليه »[٤٠٠] .

---

(٣٩٥) ما سبذان : قرب حلوان خرج إليها المسلمون بعد فتح حلوان ففتحوها، وهي عدة مدن حسنة كما وصفها صاحب المعجم. ياقوت : معجم البلدان جـ٥ / ٤٨ .

(٣٩٦) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٨٧ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٦ .

(٣٩٧) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٧٢ .

(٣٩٨) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٦ .

(٣٩٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٨٣ .

(٤٠٠) نفس المصدر جـ٤ / ١٨٣ .

بنـــاء الكوفـــة :

وأخيراً نأتي إلى الجزء الأخير من خطة سعد العسكرية التي نفذ حلقاتها بدقة من خلال توجيهات الخليفة وتوصياته ومتابعاته خلال سبع سنوات متواصلة منذ أن ودَّع سعداً في الأعوص قرب المدينة المنورة حتى عزله عن الكوفة ، وقد رأينا اهتمام الخليفة بمستقبل المسلمين والحفاظ على أرواحهم ومعارضته للتهوُّر والتسرّع ، وهذا ما جعله يكتب إلى سعد أن يعود إلى غرب نهر الفرات ليتخذ له دار هجرة ومنزل جهاد أقرب ما يكون إلى الجزيرة العربية فقد أرسل له يقول : «قف مكانك ولاتطلبوا غير ذلك» . فكتب إليه سعد : «إنما هي سُرْبة[٤٠١] أدركناها والأرض بين أيدينا» . فكتب إليه عمر : «قف مكانك ولا تتبعهم واتخذ للمسلمين دار هجرة ومنزل جهاد ، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً»[*][٤٠٢] .

وهنا نلاحظ أنه بالرغم من اختلاف وجهتي النظر بين الخليفة وسعد إلاّ أنه لم يكن بوسع قائد هذه الحملة إلا أنه ينفذ التعليمات ليرجع إلى الوراء ويتخذ له مكاناً يكون بمثابة قاعدة انطلاق لمواصلة الجهاد بعد ذلك ، ولكن من مكان آمن كما يراه الخليفة بحيث لا يكون من وراء الأنهار ، وهذا دليل على أن أمر اختيار دار للهجرة كان بعد أن تجاوز المسلمون أنهار العراق ، فنفذ سعد أمر الخليفة وخرج من المدائن إلى الوراء باتجاه نهر الفرات ،

---

(٤٠١) سُرْبة : سرب بمعنى خرج ، والسربة : الجماعة يغيرون ويرجعون . المعجم الوسيط جـ١ / ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(*) بحراً : أي نهر من أنهار العراق .

(٤٠٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤١ .

يقـول الطبري : «فنزل سعد الأنبار[٤٠٣] فاجتووها[٤٠٤] وأصابتهم بها الحمى فلم توافقهم»[٤٠٥] . فأرسل سعد بذلك إلى الخليفة فردّ عليه : «إنه لا تصلح العرب إلاّ حيث يصلح البعير والشاة في منابت العشب ، فانظر فلاةً في جنب البحر[٤٠٦] فارتد للمسلمين بها منزلاً»[٤٠٧] .

فأرسل سعد سلمان الفارسي وحذيفةَ بن اليمان فارتادا له مكان الكوفة فرحل إليها من الأنبار وأقام بها[٤٠٨] . وقد جاء في بعض الروايات أنه بينما كان سعد يقيم في المدائن أرسل وفداً إلى الخليفة عمر ليطلعه على ما وصلت إليه الفتوحات فرأى عمر رضي اللَّه عنه تغيّر ألوانهم، فسألهم عن ذلك فقالوا: «وخومةُ البلاد غيّرتنا» . فأرسل الخليفة إلى سعد يسأله : «أخبرني ما الذي غيَّر ألوان العَرب ولحومهم[٤٠٩]» ؟ فكتب إليه سعد : «إن الذي غيّرهم وخومة البلاد وإن العرب لا يوافقها إلاّ ما وافق إبلها من البلدان» .

---

(٤٠٣) الأنبار : مدينة على نهر الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ، أول من عمّرها سابور بن هرمز ذو الأكتاف، فتحت في خلافة الصديق سنة ١٢هـ على يد خالد بن الوليد، اتخذها السفاح مقراً له في بداية قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ. ياقوت : معجم البلدان جـ١ / ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٤٠٤) فاجتووها : كرهوا المقام بها. المعجم الوسيط جـ١ / ١٤٩ .

(٤٠٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤١ .

(٤٠٦) في جنب البحر : بجانب نهر الفرات، وكانت توجيهات الخليفة عمر - رضي الله عنه - تقضي بأن يتخذ سعد له مقاماً بحيث لايحول بينه وبين الجزيرة العربية بحر أو نهر ليسهل الاتصال به.

(٤٠٧) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٤١ .

(٤٠٨) نفس المصدر : جـ٤ / ١٨٩ - ١٩٠ .

(٤٠٩) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٧ .

فكتب إليه عمر أن يبعث سلمان الفارسي وحذيفةَ بن اليمان رائدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ، ليس بينه وبين المسلمين فيه بحر ولا جسر[٤١٠] ، فسارا حتى نزلا مكان الكوفة فارتاداها مكاناً لبناء الكوفة فسار إليها سعد من المدائن[٤١١] . وقد رأيت الأخذ برواية خليفة بن خياط أن ذلك كان سنة ١٧هـ[٤١٢] حيث إنها أقرب إلى تسلسل الروايات التي أخذت بها من بداية الحملة عن غيرها من الروايات الأخرى التي لاتنسجم مع بعضها[٤١٣] .

تقول بعض الروايات إن الذي دلّ على مكان الكوفة رجل يقال له : بقيلة حيث ، قال لسعد : «أدلك على أرض ارتفعت عن البقة وانحدرت عن الفلاة» . فدلهم على موضع الكوفة اليوم[٤١٤] وهذا لا يتناقض مع الارتياد السابق إذ إن اقتراح هذا الرجل قد جاء قبل إرسال سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان لاختيار ذلك الموقع الذي أصبح فيما بعد مدينة الكوفة .

وجاء في كتاب الخراج أن سعداً بعد هزيمة الفرس بجلولاء وإقامة المسلمين بالمدائن كرهوها ، فأرسل سعد بذلك إلى عمر فقال : «إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل» فلقي سعد عبادياً فقال لسعد : «أنا أدلكم على أرض ارتفعت عن البقة وتطأطأت عن السبخة وتوسطت الريف،

---

(٤١٠) نفس المصدر جـ٢ / ٣٦٨ .

(٤١١) ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٨ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٧٤-٧٥ .

(٤١٢) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط / ١٣٨ .

(٤١٣) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٣٠ . البلاذري : فتوح البلدان / ٢٧٤ - ٢٧٦ . الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٨٩ - ١٩٠ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٨ . أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر جـ١ / ١٦٢ .

(٤١٤) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط / ١٣٨ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ / ٧٥ .

وظعنت في أنف البرية قالوا : هات ، قال : أرض بين الحيرة والفرات» . فاختط الناس الكوفة ونزلوها[٤١٥] . وبعد أن استقر سعد بالكوفة أرسل إلى الخليفة يقول: «إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً بحرياً ينبت الحليّ[٤١٦] والنصيّ[٤١٧] وخيرتُ المسلمين بالمدائن فمن أعجبه المقام فيها تركته فيهَا كالمسلحة فبَقي أقوام من الأفناء وأكثرهم بنو عبس»[٤١٨] .

فابتنى الناس القصب فاحترق ، فأرسل سعد إلى عمر يستأذنه البناء باللبن فرد عليه بقوله : « افعلوا ولايزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولاتطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة»[٤١٩] . وفي رواية أخرى للطبري : أن الخليفة أوصى الوفد الذين جاؤوا إليه بحريق القصب في الكوفة ويستأذنونه بالبناء فقال لهم: «لاترفعوا بنياناً فوق القدْر ، قالوا وما القدر؟ قال: ما لا يقرِّبكم من السرف ولا يخرجكم من القصد»[٤٢٠] . فاختط الناس المسجد وقصر الكوفة وأحياءَها والأسواق وبيوت الأموال[٤٢١] .

---

(٤١٥) أبو يوسف : كتاب الخراج / ٣٠ .

(٤١٦) الحليّ : بالغ الجودة والحلاوة، وهو نبتٌ سهليّ. المعجم الوسيط جـ١ / ١٩٥ .

(٤١٧) النصيّ : نَبْتٌ سَبْطٌ من أفضل المراعي . واحدتها نصيَّة. المعجم الوسيط جـ٢ / ٩٢٧ .

(٤١٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٩٠ - ١٩١ . انظر ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٨٦ .

(٤١٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٩١ . ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٨ .

(٤٢٠) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٩١ .

(٤٢١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٩١ -١٩٣ . انظر ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٩ .

ثم تقوّل الناس على سعد بأنه بنى قصراً لنفسه وعزل عن نفسه الناس فكانت ضوضاء السوق تصله ، فقال : «سكّن عني الصويت» . فبلغ ذلك إلى عمر رضي الله عنه فدعا إليه محمد بن مسلمة[٤٢٢] وكان صاحب العمال الذي يقتص ممن شكي عليه فأرسله إلى الكوفة ومعه الكتاب التالي إلى سعد : «بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخَبال . انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت[٤٢٣] فحلف سعد إلى محمد بن مسلمة ما قال الذي قالوا ، فبلَّغ الخليفةَ بذلك فصدق يمين سعد، وقال : «هو أصدق ممن روى عليه ، ومن أبلغني»[٤٢٤] وقد أثبتت الأيام بعد بناء الكوفة صحة رأي الخليفة وبُعد نظره بأن تتواصل الفتوحات من الكوفة قاعدة الجند الإسلامي لأن الكوفة في أرض العرب أكثر أماناً من المدائن في أرض الفرس بما عرفوا به من كيدٍ للدولة الإسلامية، ومؤامرات ودسائس ظهرت فيما بعد .

ولم تتوقف الفتوحات بعد إقامة سعد بالكوفة إذ اجتمعت فلول الفرس بنهاوند ، وعليهم ذو الحاجب جاذويه فأرسل النعمان بن مقرّن المزني إلى

---

(٤٢٢) محمد بن مسلمة بن سلمة بن خالد بن عديّ بن مجدعة، أبوعبدالله الأنصاري الأوسي، من نجباء الصحابة، شهد بدراً والمشاهد الأخرى، استخلفه النبي ﷺ مرةً على المدينة، أقام بالربذة مدة، استعمله الخليفة عمر على زكاة جهينة، كان على مقدمة الخليفة عمر في رحلته إلى الشام سنة ١٥هـ، مات سنة ٤٣هـ. الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ٢ / ٣٦٩ - ٣٧٣ .

(٤٢٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٩٣ .

(٤٢٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ١٩٣ . انظر ابن الأثير : الكامل جـ٢ / ٣٦٩ .

الخليفة عمر يخبره أن سعداً استعمله على جباية الخراج وأنه يرغب في الجهاد فأرسل الخليفة بذلك إلى سعد وقال له: «فابعث به إلى أهم وجوهك إلى نهاوند»[٤٢٥] . ثم كتب الخليفة إلى النعمان بن مقرِّن: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. من عبد اللَّه أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرِّن، سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد: فإنه بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر اللَّه وبعون اللَّه وبنصر اللَّه بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفِّرهم ولا تدخلنهم غيضةً. فإن رجلاً من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك»[٤٢٦] .

فسار النعمان بن مقرن ومعه وجوه الصحابة فحاصروا نهاوند، فأصابت نشَّابة النعمان بن مقرِّن فمات شهيداً وتولى أمر الناس حذيفة بن اليمان، وقُتل ذو الحاجب وفُتحت نهاوند سنة ٢١هـ[٤٢٧] . ثم تواترت الشكايات على سعد بن أبي وقاص فأرسل إليه الخليفة محمد بن مسلمة فجاءَه واصطحبه معه إلى المدينة بعد أن ترك مكانه نائباً عنه عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان[٤٢٨]

---

(٤٢٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٤ / ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٤٢٦) نفس المصدر جـ٤ / ٢٣٢ .

(٤٢٧) المصدر نفسه جـ٤ / ٢٣٢ .

(٤٢٨) عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان الأنصاري، من أصحاب الرسول ﷺ، كان صغيراً في حياته فلم يشترك في غزواته، شهد حروب الردة، وشهد فتوح العراق، عاون سعد بن أبي وقاص في مهامه أثناء إقامته في الكوفة، أمَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة بعد ما عزل سعداً عنها حيث تركه سعد نائباً عنه عندما استدعاه الخليفة إلى المدينة، شارك في فتح أصفهان وكرمان. ابن الأثير: أسد الغابة جـ٣ / ١١٩ . ابن حجر: الإصابة جـ٤ / ٩٧ - ١٠٠ .

فأقره الخليفة عليها. وعزل سعداً سنة ٢١هـ، فكانت ولايته عليها - كما يقول ابن الأثير - ثلاث سنين ونصفاً[٤٢٩]. ثم ولاها بعد عبد اللّه بن عتبان عمار بن ياسر[٤٣٠] سنة ٢٢هـ، وأرسل معه عبد اللّه بن مسعود[٤٣١] معلماً ووزيراً لأهل الكوفة وقد أرسل الخليفة إلى أهل الكوفة قائلاً لهم: «قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد اللّه بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما واسمعوا قولهما وقد آثرتكم بعبد اللّه على نفسي»[٤٣٢].

وهكذا أكون قد وصلت إلى نهاية هذه الحملة التي تولى قيادتها سعد بن أبي وقاص منذ أن قاد الجيش الإسلامي وتحرّك به من صرار قرب المدينة المنورة سنة ١٤هـ حتى عزله الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الكوفة سنة ٢١هـ.

---

(٤٢٩) ابن الأثير: الكامل جـ٣/ ٢-٣.

(٤٣٠) عمّار بن ياسر بن عامر بن مالك، مولى بني مخزوم، الإمام الكبير، أحد السابقين الأولين والأعيان البدريين، أمه سمية بنت خباط مولاة ابني مخزوم، من كبار الصحابيات، قدم أبوه من اليمن وأقام بمكة وأسلم، تحمل عمار بن ياسر العذاب من مشركي مكة بسبب إسلامه، تولى إمارة الكوفة في خلافة عمر بعد عبد اللّه بن عتبان، قتل بصفين سنة ٣٧هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١/ ٤٠٦ - ٤٢٨.

(٤٣١) عبد اللّه بن مسعود بن غافل بن حبيب بن مخزوم بن هذيل بن إلياس بن مضر بن نزار، الإمام فقيه الأمة المهاجري البدري، حليف بني زهر، يلقب ابن أم عبد، من السابقين الأولين إلى الإسلام وهاجر الهجرتين الأولى إلى مكة قبل إسلامه، والثانية إلى المدينة، قال فيه الرسول ﷺ: (من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أُنزل، فليقرأ قراءَة ابن أم عبد). من كتاب الوحي بين يدي الرسول ﷺ، أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته معلماً لأهل الكوفة، توفي في المدينة، ودفن في البقيع سنة ٣٢هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء جـ١/ ٤٦١ - ٥٠٠.

(٤٣٢) ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين جـ٤/ ١٤٤.

خاتمة البحث :

تعد الحملة التي قادها سعد بن أبي وقاص إلى العراق وفارس من أهم وأطول حملات الفتح في التاريخ الإسلامي، لما ترتب عليها من انتصارات عظيمة، وفتوحات واسعة، خارج الجزيرة العربية جاءَت نتاجاً لجهود صادقة ومخلصة ورغبة في الجهاد عند أولئك الصحابة المؤمنين، كما جاءَت نتيجة للمتابعة الحثيثة والتخطيط المتواصل من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والالتزام الدقيق من القائد الفاتح سعد بن أبي وقاص، لتوجيهات الخليفة وتعليماته.

وخلال مدة الحملة التي استغرقت سنوات متتابعة، تبين أنها جاءَت على أربع حلقات متصلة: أولها تعلقت بالإعداد والتجهيز لمعركة القادسية، وثانيتها : جاءَت لما بعد القادسية بشأن ترتيب أوضاع سواد العراق، وثالثتها: تتعلق بفتح المدائن، وآخرها : لبناء الكوفة لتكون داراً للهجرة وإقامة الجند لمواصلة الفتوحات الإسلامية بعد ذلك.

وقد تتبعتُ سير ونتائج هذه المراحل الأربعة من خلال المراسلات المتتابعة بين الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسعد بن أبي وقاص، منذ خروج الحملة من «صرَار» قرب المدينة المنورة سنة ١٤هـ، حتى عزل القائد عن الكوفة سنة ٢١هـ، فوجدت حرص الخليفة على أرواح المسلمين وتقديره للمسؤولية إلى أبعد الحدود، واهتمامه الشديد بمتابعة الفتح ، والتخطيط المتواصل ، وتأمين الإمدادات له.

كما لاحظت دقة التنفيذ والتقيد بالأوامر والتوجيهات من قائد الحملة، وروح التضحية والحرص على الشهادة، والإصرار على نشر الإسلام من الجند الفاتحين بنية خالصة لوجه اللّه تعالى.

فهرس المصادر والمراجع :

ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ) :

١ - **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، طهران ، ١٢٨٦ -١٢٨٧هـ المكتبة الإسلامية ، د . ت .

٢ - **الكامل في التاريخ** ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر ، ١٣٤٩هـ ، دار الفكر ، بيروت، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

بروكلمان ، كارل :

٣ - **تاريخ الشعوب الإسلامية** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٧ ، ١٩٧٧م .

البكري ، عبد اللّه بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ):

٤ - **معجم ما استعجم** ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣، ١٤٠١هـ .

البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري (ت٢٧٩هـ) .

٥- **فتوح البلدان** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

ابن حجر ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) .

٦- **الإصابة في تمييز الصحابة** . دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد اللّه بن عبد اللّه (٣٠٠هـ) .

٧- **المسالك والممالك** ليدن ، ١٨٨٩م.

ابن خياط ، أبو عمرو شباب خليفة بن خياط بن أبي هبيرة خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت٢٤٠هـ) .

٨ - **تاريخ خليفة بن خياط** ، دار طيبة ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الدّينَوري ، أبو حنيفة بن داود الدّينوري (ت ٢٨٢هـ)

٩- **الأخبار الطوال** ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨م.

الذهبي ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)

١٠- **سير أعلام النبلاء** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١١- **العبر في خبر من غبر التراث العربي** ، سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠م .

الراشد ، سعد بن عبدالعزيز سعد .

١٢- **درب زبيدة** ، دار الوطن ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

أبو زهرة ، محمد بن أحمد .

١٣- **خاتم النبيين** ، مؤسسة دار العلوم ، الدوحة ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

السرخسي ، محمد بن أحمد (ت أواخر القرن الخامس الهجري) .

١٤- **شرح كتاب السير الكبير** ، مطبعة شركة الإعلانات التجارية ، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع . (ت ٢٣٠هـ) .

١٥- **الطبقات الكبرى** ،دار صادر ، بيروت ، د.ت.

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .

١٦- **تاريخ الأمم والملوك** ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

ابن عبدالبر ، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) .

١٧- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، د.ت.

ابن عبدالحق ، عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ) .

١٨- **مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع** ، دار إحياء الكتب العربية ، ط١٣٧٣هـ.

ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ).

١٩- **العقد الفريد مطبعة الاستقامة**، القاهرة، ط٢، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

ابن العبري ، غريغور يوس الملطي (ت ٦٨٥هـ) .

٢٠- **تاريخ مختصر الدول** ، دار المسيرة ، بيروت ، د.ت .

ابن العماد ، أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ).

٢١- **شذرات الذهب ،** المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت.

أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) .

٢٢- **المختصر في أخبار البشر ،** دار المعرفة ، بيروت ، د.ت.

ابن قدامة ، أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) .

٢٣- **المغني ،** مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، د.ت. ، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة ، د.ت.

القرشي ، يحيى بن آدم (ت ٢٠٣هـ) .

٢٤- **كتاب الخراج ،** دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٠٢هـ .

ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ) .

٢٥- **إعلام الموقعين عن رب العالمين ،** دار الجيل ، بيروت ، د.ت.

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي (ت ٧٧٤هـ) .

٢٦- **البداية والنهاية ،** مكتبة المعارف ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٧م.

الماوردي ، أبو الحسن علي بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ) .

٢٧- **الأحكام السلطانية ،** دار الفكر ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

إبراهيم أنيس ، عبد الحليم منتصر ، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد.

٢٨- **المعجم الوسيط ،** إدارة إحياء التراث الإسلامي ، الدوحة ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م .

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ) .

٢٩- **مروج الذهب ومعادن الجوهر ،** دار الفكر ، بيروت ، ط٥ ، ١٣٩٣هـ .

ابن هشام ، الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) .

٣٠- **السيرة النبوية ،** دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ،١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ابن الهيثمي ، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧هـ) .

٣١- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ،** دار الكتب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م.

ياقوت الحموي ، الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد اللّه ياقوت بن عبد اللّه الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) .

٣٢- **معجم البلدان ،** دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ) .

٣٣- **تاريخ اليعقوبي،** دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ

أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة (ت١٨٢هـ) .

٣٤- **كتاب الخراج** ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٠٢هـ.

الدوريات :

٣٥- **أطلال حولية الآثار العربية السعودية** ، تصدر عن إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف السعودية - الرياض .

- العدد الخامس - ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

صلاح محمد الحلوة ، كراج مورجان :

٣٦- **برامج توثيق معالم الطريق الإسلامي الشهير (درب زبيدة)**

- العدد السادس - ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

صلاح محمد الحلوة ، عبد العزيز آل الشيخ ، عبد الجواد مراد

٣٧- **مشروع استكشاف وتوثيق درب زبيدة.**